السنة الثالثة والعشرون   العدد ١   كانون الثاني   ١٩٢٥

المشرق

مفكّرات السنة الشمسية لاهل الكرة الارضية

نشر علمي للاب لويس شيخو اليسوعي

يوم الخميس في غرّة كانون الثاني يدخل العالم في سنة شمسيَّة جديدة هي الخامسة والعشرون بعد التسعمائة والالف منذ ميلاد السيد المسيح وهي توافق السنة ٧٤٣٢ لآدم على الحساب البوزنطي و ٧١٢٤ للخليقة حسب الترجمة السبعينيَّة والسنة ٥٦٨٥–٥٦٨٦ للحساب اليهودي والسنة ٤٨٨٢ للطوفان و ٣٩٤٠ لابرهيم الخليل و ٣٤٣٥ لموسى الكليم و ٢٩٥٧ للملك والنبي داود و ٢٦٧٨ لرومية و ٢٢٣٧ لليونان او السلوقيين والسنة ١٦٤١ – ١٦٤٢ هجريَّة وفي السنة ١٩٢٥ يقع بدء الصوم يوم الاثنين في ٢٣ شباط وعيد الفصح في ١٢ نيسان. عددها الذهبي في رتبة السنين الدوريَّة في كلّ ١٩ سنة هو ٧ وقاعدة القمر في اوّل يوم من السنة هي ٥

فهذا الحساب كما ترى مبنيٌّ كلّهُ على الشمس واليها مرجعنا في معرفة سنتنا بل اليها الفضل في حياتنا كلّها كما عليها يترتّب نظام سنتنا. ولذلك اتّخذتها كل الشعوب الراقية قاعدةً لتدبير امورها. وبلغ بالبعض منها معرفتُها الجميل ان وجّهت اليها إكرامها فسجدت واتّخذتها كمعبودتها السامية بدلًا من ان ترفع عواطف شكرها الى الله الخالق الذي أبدعها وجعلها سراجًا لعالمنا وعلّق عليها منافع ارضنا

فبهذه النسبة احببنا ان نذكر بعض ما تستفيدهُ كرة ارضنا ونستفيد نحن معها من فضل الشمس بعناية الخالق فيزيد حبّنا لذلك الاله الذي سخّر هذا النيّر العظيم لخدمتنا ولولاهُ لتنغّص كلّ عيشنا بل لعُدمت حياتنا تمامًا

***

واوّل ما يقضي على كُرَة ارضنا بالشكر للشمس انّها «ابنة الشمس» ومنها كيانها. فانّها كبقيّة السيّارات الدائرة حول الشمس كانت في سالف الاعصار جزءًا من الشمس وبدوران الشمس في الافلاك انفصمت عن امّها واستقلّت بحركتها الّا انّ الشمس لم تزل تضبطها تحت سلطانها فهي تجذبها وحولها تدور ومنها تستمدّ نورها فهي كحاشية ذاك الملك الجبّار تجري منوطةً بحكمه تربطها اواصر الرحم بمولدتها

٢ ومن نعمة الخالق انّ القرابة بين الشمس والارض هي قرابة حبٍّ معتدل فانّها لا تتحكّم على الارض تحكُّم العاشق بمعشوقه ولا تجعل محبّتها رخوة الروابط فتحرمها كثيرًا من عواطف حبّها . فانّ موقع الارض في النظام الشمسي متوسّطٌ ليست قريبة كسيّارتي عطارد والزُّهرة ولا بعيدة كبعد المرّيخ ولاسيّما المشتري وزُحل واورانوس ونبتون . ورتبتها هذه المتوسّطة توليها منافع جمّة . فلو كانت في جيرة الشمس كعطارد لأحرقت الشمس كل نباتها واهلكت كلّ نسل عليها . وعطارد تتلظّى باشعّة الشمس المتّقدة فتنالها من حرارتها سبعة اضعاف حرارة الارض كما اثبت ذلك الفلكيّون . امّا الزهرة فانّها وان لم تشعر بلفحات الشمس كشقيقتها عطارد الّا انّ وقدات الحرّ عليها ضعف حرارة الشمس على سطح كُرتنا وهذا ممّا لا يُحتمل في معظم اقاليم ارضنا

وبخلاف ذلك لو كانت ارضنا على بُعد سيّارة المرّيخ من الشمس لما نالها من نورها الّا ثلث الحرارة التي ينالها المرّيخ فيكون اذن بردُنا قارسًا لم نستطع احتمال وطأته في معظم فصول السنة . وما قولنا لو كانت الارض على المسافة الفاصلة بين الشمس والمشتري فانّ قوّة النور والحرارة على سطح السيّارة المشتري تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ مرة اضعف منها على الارض فايُّ حيّ يستطيع ان يقاسي مثل هذا البرد المهلك ؟. وكم بالحري لو وُجدت ارضنا على مسافة زُحل واورانوس ونبتون من الشمس وكلّها تستمدّ نورها وحرارتها منها فنصيبها منهما نصيب الفقير المدقع المائت جوعًا وعطشًا . ومن هذه المقابلة تظهر عناية الله الصمدانيّة بارضنا وسكّانها . وبها يصحّ قول الفلاسفة انّ خير الامور اوساطها

٣ ولمقام ارضنا في النظام الشمسي نعمة ثالثة وهي مدّة دورانها حول الشمس

وعليها تترتَّب السنة الشمسيَّة . فدوران الارض كما هو معلوم يدوم ٣٦٥ يوماً مع زيادة يتكوَّن منها يوم في السنة الكبيسة . ومن هذا الدوران تتألَّف الفصول الاربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف يتواصل بعضها ببعض وتتناسق تناسقاً بطيئاً ليناً لا يحدث عنهُ ضررٌ بالانقلاب المتسرّع حتى لو وقع بعض الخلل في تلك الفصول للحقنا منهُ اضرار محسوسة كالجدب في الصيف والخريف ثمَّ السيول العرمة في الشتاء والربيع .

ألقِ الآن نظرك على بقيَّة السيَّارات تَرَ فضل حالة ارضنا عليها فانَّ عطارد تدور حول الشمس بنحو من ٨٨ يوماً لا تتجاوز فصولها الاربعة ٢٢ يوماً فناهيك بذلك من تقلُّبات سريعة في جوّها بموجب اقترابها المفرط من الشمس او ابتعادها عنها اذ تدور حولها كأرضنا على شكل اهليلجيّ . وكذلك الزهرة فانَّها تدور حول الشمس بقريب من ٢٢٥ يوماً فيكون لكل فصل ٥٦ يوماً بنيِّف . فانَّ سكَّانها على افتراض وجودهم فيها معرَّضون لآفات التقلُّبات الجوّيَّة

وعلى عكس ذلك فصول سنة المرّيخ التي يطول دورانُها حول الشمس نيفاً و٦٨٦ يوماً وذلك ما يجعل فصولها الاربعة مفرطة الطول يزيد الفصل عن خمسة اشهر . فلو وُجد البشر على سطحها لَسئموا وتململوا واشتهوا نهاية الفصول المضنية المملَّة لاسيما الخريف والشتاء . وافظعُ من ذلك موقف سيَّارة المشتري التي تدوم سنتها لتقطع سيرها حول الشمس ثلاثين سنةً من سني ارضنا فيكون الفصل سبع سنين وعدَّة شهور . وما قولنا بزحل واورانوس ونبتون ودورانها في افلاكها البعيدة

٤ً ومن النعم الحاصلة لأرضنا من فضل الشمس تحديد ازمنتها وتقاسيم سنتها من ايام وشهور وسنين . وذلك كلهُ ممَّا يشقّ ضبطهُ في غيرها من السيَّارات . فانَّ ارضنا توجّه كلَّ يوم احد قسمَيْها الى الشمس بضع ساعات ثمَّ تحوّل اليها قسمها الثاني وبذلك يتمّ نظام الليل والنهار . فيدعو الليل البشرَ الى السكينة والراحة ويستفزُّهم النهار الى الحركة والعمل . تخفّ عنهم في الليل وطأة الحرّ ويكسوهم النهار بهجةً ويفعمهم نشاطاً . يأوون ليلاً الى الخلوة والانفراد ويعودون نهارًا الى حلبة السباق والازدهار . ثمَّ تتناوب ايَّام الاسبوع ثمَّ الشهر الى السنة فيخصّص لبعض اطوارها مواسم ترتبط مع مواقع الشمس في منطقة بروجها

٥ً ثمَّ ان لكرتنا الارضيَّة تقاطيع ومناطق مختلفة من اودية وجبال وسهول

ونُجود وقارَّات وبحار للشمس فيها فعلُها المشكور تحيي التربة بحرارتها وتزكي الزروع بنورها واشعَّتها وتمتصُّ المياه صيفاً فتحولُها الى الجزرة ثمَّ الى امطار وثلوج شتاء فتسقي النبات والحيوان وتُخصب سائر البلدان بما يتولَّد منها من الانهار . كلُّ ذلك بفضل الشمس ونسبة ارضنا الى بُعدها عن مركزها

وما قولنا عن مظاهر اخرى تعللها الشمس في ارضنا كهبوب الرياح الناتجة عن تخلُّل الهواء بحرارتها فتهجم الرياح حيثما تفرغ الاهوية من البرِّ الى البحر ومن البحر الى البرِّ ومن الجبال الى الصحاري ومن الصحاري الى الاودية بسرعة تختلف على حسب فروغ الهواء

٦ً وكم لنور الشمس في ارضنا من المفاعيل العجيبة في تلوين الاثمار والنبات وجلود الحيوان واجنحة الطيور . وما اجمل المناظر وأفتنها عند شروق الشمس وغروبها اذ تكسو الأُفق بألوان حمراء ارجوانيَّة ذهبيَّة لازورديَّة لا تشبع العين من النظر اليها . وكذا قُل عن قوس قُزَح اذ ينعكس نور الشمس على الغمام فتنحلُّ اشعَّتهُ البيضاء الى الالوان السبعة التي يتركَّب منها

كلُّ هذه العجائب خصَّ الله بها ارضنا ولا اثر لها في غيرها من السيَّارات لخلوّها من المياه اذ لا جوَّ لها كجوِّنا . فصدق ما قلنا فيها انَّها ابنة الشمس واعزُّ المحبوبات اليها

***

وهذه المظاهر كلُّها طبيعيَّة وانَّما عليها تترتَّب مظاهر أُخرى اجتماعيَّة وادبيَّة . فانَّ لكلِّ دولة ولكلِّ دين تظاهرات مرتبطة بالسنة الشمسيَّة تحتفل بها في اوقات محدودة . وان قصرنا النظر على الكنيسة الكاثوليكية وجدنا بين رتبها والشمس علائق لطيفة . ولا عجب فانَّها تعتبر الشمس كرمز السيد المسيح الذي تدعوهُ شمس العدل وشمس العقول . كيف لا وهو «النور الحقيقي الذي يُنير كلَّ انسانٍ يأتي الى هذا العالم» (يوحنَّا ١ : ٩) وقد قال عزَّ وجلَّ عن نفسهِ « انا نور العالم مَن تبعَني فلا يمشي في الظلام بل يكون لهُ نور الحياة» (يوحنَّا ٨ : ١٢)

وهذا ما حدا بالكنيسة الى ان تجعل فرائضها وصلواتها القانونيَّة على نظام حركات الشمس في دورها اليوميِّ . فهي توجّه صلواتها الى المسيح سيّدها شمس البرِّ في خمسة اطوار الشمس اليوميَّة فتبدأُ بصلاة الساعة الاولى عند طلوع الشمس . ثمَّ تعقبها بصلاة

الساعة الثالثة في رأد الضُّحى اذ تبلغ الشمس تمام نورها وحرارتها. وتليها صلاة الساعة السادسة في الهاجرة عند بلوغ الشمس مستوى سيرها في الفلك. وتعود اليها عصراً عند زوال الشمس في اصيل النهار فتلك صلاة التاسعة. ثم تختم النهار عند مغيب الشمس بصلاة الغروب مع الستار. وتدع صلواتها المطوَّلة لثلاث هجعات الليل اذ يتجلَّى لها ذاك الاله الذي لا تحجب نورَهُ ظلمةٌ

واليوم الاوَّل من الاسبوع وهو الاحد معدودٌ كيوم النور وهو في عرف كثير من للشعوب يُدعى بيوم الشمس (dies Solis, Sonntag, Sunday) فالكنيسة خصَّتها بخدمة الله كباكورة الاسبوع وحظرت على ابنائها الاشغال المادّيّة

وكذلك في نظام الكنيسة السنوي ترى اخصَّ اعيادها ذات علاقة مع الشمس. فانَّ اوَّل اعيادها عيد ميلاد الربّ جعلتهُ في ٢٥ كانون الاوَّل حيث يقع تقريباً عند الانقلاب الشتوي فيبدأ النهار بالطول ويزداد نور الشمس. وكذا عيد دخول المسيح الى الهيكل في ٢ شباط يدعى بعيد النور لظهور الربّ فيهِ وهو «النور الذي ينجلي للامم» كما قال سمعان الشيخ (لوقا ٢:٣٢). ثم يأتي عيد الفصح فانهُ واقع بقرب الاعتدال الربيعيّ وغلبة نور الشمس في النهار على ظلمة الليل. ومثلهُ عيد تجلّي الرب في ٦ آب عند معمعان الصيف اشارةً الى ظهورهِ في جلالهِ اذ اضاء وجههُ كالشمس» (متى ١٧: ٢). وفي اواسط ذلك الشهر عيد انتقال العذراء التي قيل فيها انَّها مختارة كالشمس (نشيد ٦:٩) ورآها يوحنا الحبيب في الرؤيا (١٢ : ١) فقال عنها: «وظهرت في السماء آية عظيمة امرأةٌ ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر وفي رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً»

فترى ما للشمس من المقام الرفيع في عالم الادب والدين كما في عالم الكون الطبيعيّ فيحقّ على الانسان ان يقدِّم لربّ الاكوان الشكر العميم على ما نالهُ ولا يزال ينالهُ من مراحمهِ تعالى بواسطة ذاك النيّر العظيم الذي على الرغم من جمالهِ ليس هو الَّا صورة مادّيّة ضعيفة للنور الالهي الذي ينجلي للقلوب في الارض وسيسطع بكلّ بهائهِ ورونقهِ في السماء لابصار الابرار مدى الدهور والاعصار

كوتولنكو

أو عجائب العناية الالهية

بقلم حضرة الخوري مارون غصن استاذ الخطابة في كليَّتنا

في اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان سنة ١٩١٧ ، أشرقتْ فوق كرسي زعيم الرُسل في كنيسة القديس بطرس الكبرى برومةَ العظمى ، طلعةُ طوباويٍ جديد محاطةً بهالات التكريم والتعظيم . وما تلك الهالات سوى رمزٍ يرمزُ إلى ذلك المجدِ الدائم ، الذي حازه يوسف مبارك كوتُولنكو (Cottolengo) امام الله والناس .

فإنّ ذلك العمل الخيريَّ العجيب الذي أنشأهُ كوتولنكو في الجهة الجنوبيَّة من جبال الألب ، قد ذاع صيتهُ واشتهر ، حتى أنَّ كلَّ من زار مدينة تورينو لا يتمالك عن أنْ يقف أمام ذلك العمل دَهِشاً حائرًا

ففي تلك المدينة الغاصَّة بالاشغال التجاريَّة والسياسيَّة ، وفي وسط مقاطعة بيامونتي (Piémont) المشهورة بالزراعة والصناعة ، وأمامَ هاتيك الابصار المتنبهة والعقول المنصرفة بكلّ قواها إلى الامور الماديَّة ، وأمام المتَّكلين على العناية البشريَّة وحدها ، أنشأ كوتولنكو ملاجئَ خيريَّة تضمُّ الآن بين جدرانها ما ينيف على ثمانية آلاف شخص ، تعولُهم العناية الالهية وتفيض لهم القوت اليومي

فلا بدع إذا لقَّب الناسُ ذلك العمل العجيب بالاعجوبة الدائمة . فانّ الله لا يزال يصنع في تلك المآوي الخيرية في كل يوم عجائبَ ثلاثَ : اعجوبةً ماليَّة تُجري الرزق على سكان اولئك الملاجئ يوماً فيوماً ، بالٍ لا يدرون من أين أتى ، ولا ممَّن أتى ، ولا كيف أتى . وأعجوبةَ سلامٍ دائمٍ يُرفرف فوق تلك الجماهير . وأعجوبةَ رحمةٍ عجيبة لم تستطع الحربُ الكونية أنْ تخفّفَ مُجراها . وبينا كان العالم أجمع ايام الحرب الاخيرة في شدَّةٍ وضيق ، كان هؤلاء الفقراء في رَغدٍ وسعة ، فلم يذوقوا غير خبز الحنطة ولا أعوزهم شيءٌ قطعاً

فهيّا الآن ايها القارئ الكريم ، لنطالعك على الاعمال التي أنشأها الله بواسطة عبده كوتولنكو فترى اذ ذاك عجائب العناية الالهية

١ نظرة عامّة

يرى الناظر الى ضاحيةٍ من ضواحي مدينة تورينو حيًّا غريب الشكل ، أو قل مدينةً ، بُنيتْ حيالَ تلك المدينة الكبيرة ، يُنيفُ عددُ سكّانها على ثمانية آلاف شخص ، في مساحةٍ تبلغ مائتي الف متر مربّع . وقد أحاط بذلك الحيّ سورٌ ضخم ، لا أعمدة فيه ولا أروقة ولا مخازن . فعندهُ تنتهي أبنيةُ تورينو المشيّدة على شكل هندسيّ بديع . لكنّ الزائر لا يصل إلى ذلك البناء الكبير حتى يقف ويقول : تُرى أحصنٌ هذا . . أم معملٌ . . أم دير ؟ فإنّ هذه المدينة السريّة قد ارتفعت جدرانها وبدتْ بمظهرٍ يرى الغريبُ فيه لغزًا وأحجيّة

وليس لهذا البناء اسمٌ يدلُّ على شيءٍ عظيم ، فقد دعوهُ باسم « كوتولنكو » ، وقد يختصرونهُ ويقولون « كوتو »

وما يوسف كوتولنكو هذا سوى اسم كاهن وضيع ، وُلد سنة ١٧٨٦ في مدينة « برا » (Bra) من مقاطعة « بيامونتي » ، ومات في مدينة كياري (Chieri) . وكان قانونيًا في رعية اسمها جسد الرب (Corpus Domini) . ولم يكن لهذا الكاهن صيتٌ عريض وشهرةٌ واسعة ، لكنّهُ خلّف بعد موتهِ أعمالًا عظيمة نشرتْ ذكرهُ إلى البعيد . وقد بحثتِ الكنيسة المقدّسة عن حياتهِ واعمالهِ ، فأثبتتْهُ بين الطوباويّين ورفعت تمثالهُ فوق المذابح

لكنّ هذا الرجل العجيب ، الذي ضارع بإيمانهِ آباء العهد القديم ، لم يكن يرضى قطُّ بأنْ يُذكر لهُ اسمٌ ، بل كان يودُّ ابدًا أنْ يتوارى في ظلّ ذلك القديس الشهير منصور دي پول مثال الرحمة للاجيال المتأخرة . ولذلك دعا عمله الكبير باسم حقير فوسمهُ بالبيت الصغير (La Piccola Casa)

والبيت الصغير هذا ، كما سبق القول ، اشبه بمدينة ، قد اشتملت على حدائق ومعامل ومدارس ومآوٍ ومناسك وأديار راهبات ممرّضات ، وملاجئ للشيوخ العاجزين ، ومنازل للمجانين والبُلْهِ والعُرْج والصُمّ والعميان ، وميااتم ومدارس

اكليريكية ، وردهات واسعة لايواء كلّ من نزل بهِ شقاء ، ولاسيما لمن كانت حالتهم أدعى إلى النفور والاشمئزاز فأهملهم الناسُ وخذلوهم

وإنَّ القلم ليعجز عن وصف ذلك البيت الصغير ، وعن كيفيّة قيامهِ ونموّهِ المتواصل السريع منذ ٩٠ سنة ونيّف إلى الآن . فهو امرٌ لا تقوى يدٌ بشريّة على النهوض بهِ ، لأنّ ذلك البيت الصغير، او قُل تلك المدينة الواسعة ، ليس لها دخلٌ مالي أصلًا ، ولا عقار ولا مرتّبات ولا جمعيات خيريّة منظّمة تسعى لمساعدتها ، فهي لا تعيش إلّا من صدقات تدرُّ عليها من غير طلبٍ ولا سؤال ، وقد تبلغ تلك الصدقات في بعض الاحايين مبالغ وافرة فتُنفَق كلُّها ولا يُؤذَنُ في استبقاء شيء منها

وليس لهذهِ « المدينةِ السرّية » موردٌ خاص من اشغال سكّانها ، وما فيها إلّا كلُّ مريضٍ وعاجز . وايّ نتيجة ماليّة تحصلُ من تلك الايدي الضعيفة التي تقومُ ببعض الخدم البيتيّة اليسيرة ، من مثل تنقية الحبوب والخُضَر وإصلاح الثياب وترقيعها، بينا أنَّ نفقات تلك الملاجئ الخيريّة في كلّ عام تزيدُ على ثلاثةِ ملايين فرنك

وليس أيضاً في هذهِ المدينة صناعةٌ سوى صناعة الصلاةِ ليل نهار ، صلاةٌ سداها طلبُ القداسة فقط ولُحمتُها الشكر . وفي إزاء هذهِ المعامل الروحيّة معمل آخر لا بدّ للهيئةِ الاجتماعيّة منهُ ، فيهِ تُمارس الإماتات المسيحيّة تكفيراً عن مآثم البشر . وهنالك أيضاً ديرٌ تخصّص بترتيل الفروض الالهيّة على مثال الحبساء القديسين القدماء.

ولكَمْ من زائرٍ وقف أمام تلك المنازل الخيريّة حائراً مدهشاً ، ولسانُ حالهِ يقول : حقًّا ما هذا عملُ بشرٍ ! . .

ولما بلغ شارلَ ألبر ملكَ سردينية خبرُ اعمال كوتولنكو تأثَّر كلَّ التأثُّر ، وحملتهُ الغيرةُ على أنْ يكون لذلك المؤسِّس الوضيع مُعيناً وعضُداً ، فاستقدم كوتولنكو وقال له : أودُّ يا حضرة الاب أن تجعل ملاجئك هذه تحت حماية حكومتي ، وأنا مستعدٌّ لابذل وُسعي في إعانتها . فاضطرب كوتولنكو وقال : إيذن لي يا مولاي أن اقول لك ، إني قد سبقتُ وجعلتُ البيت الصغير تحت حماية مريم العذراء ورعاية العناية الالهيّة ، فلا يسعني أن أعود فانزعَهُ منها ، لأجعلَهُ تحت حماية الحكومة !

وكان كوتولنكو يخاف كلّما زار البيتَ الصغيرَ أميرٌ أو رجلٌ عظيم . وكان يقول : أخشى أنْ تغتاظ العنايةُ الالهيّةُ من تصرُّفِ العنايةِ البشريّة

هذا ولا نكتمُ القراء الكرام، انّنا كنا قد نوينا إطلاعهم على جميع تلك الاعمال الباهرة، التي انشأها رجل الله، فاستقبانا العجز عن الاحاطة بجميع ذلك، ورأينا انّ الامر يقتضي مجلّدًا ضخماً لا تسعهُ هذه المجلّة مع كبر حجمها، فاجتزأنا بتلخيص شيء من تلك المؤسسات التي كتب عنها مؤرّخون صادقون، زاروا ذلك البيت الذي دعاهُ كوتولنكو صغيرًا، وشاهدوا ما فيه من الاعمال المدهشة الناطقة باعاجيب العناية الالهيَّة

ولما كانت ابواب هذه الملاجئ لا تزال مفتوحةً في وجه كلّ زائر، رأينا ان نسير بالطالع الكريم لزيارة ذلك البيت الصغير العجيب

٢ القنطرة الحمراء

هلمَّ ايها القارئ الكريم نبدأ بزيارة اقدم محلّةٍ في وسط مدينة تورينو، حيث نرى كنيسة جسد الرب التي شيّدها سكان تورينو، تخليدًا لذكر أعجوبة باهرة صنعها القربان المقدّس. وهي انّ اللصوص دخلوا ذات ليلةٍ احدى كنائس المدينة، وسرقوا كلّ ما فيها حتى حُقّ القربان، وجعلوا جميع ذلك في اكياس وفرّوا بها. ولمّا وصلوا الى احدى ساحات البلدة، تحرّكت اجزاء القربان المقدس، وفُتحت الاكياس فطارت في الفضاء، وبقيت محلّقةً في الجوّ حتى اقبل الكهنة في جمع غفير وطوافٍ حافل. ولمّا بلغوا المكان المذكور، سجدوا كلّهم ورفع الكهنة بايديهم كؤوساً مقدّسة فنزلت جميع اجزاء القربان رويدًا رويدًا واستقرّت فيها. وكان ذلك في اليوم السابع من شهر حزيران سنة ١٤٥٣

هذه هي الكنيسة العجائبيَّة، التي عُيّن فيها يوسف كوتولنكو كاهناً برتبة قانوني (Chanoine) سنة ١٨١٨

ففي مساء احد ايام ايلول من سنة ١٨٢٧، وصلت الى تورينو امرأة فقيرة حبلى، وهي مصابة بمرض مخطر، فقرعت ابواب مستشفيات المدينة، فلم تجد محلّاً، فجرّت نفسها الى فندق حقير حيث ماتت بعد قليل

وكان كوتولنكو قد اسرع الى هناك، ليساعد المريضة المسكينة ويمنحها الاسرار الاخيرة. ولمّا رآها، وقد ماتت على تلك الحال، بلغ منه التأثر، ولاسيما حين

شاهد صغارها من حولها ينوحون ويبكون ، وزوجها يردّد ويقول : أفي مدينةٍ مسيحيَّةٍ كمدينة تورينو لا أجدُ سريرًا لامرأتي المسكينة !

فمن تلك الساعة عزم كوتولنكو ان يستدرك الامور ويتلافى باسرع ما يمكن وقوع امثال هذه الفواجع

ولمَّا كان المساء أطلع رفقاءهُ الكهنة على ما كان ، فتأثَّروا كلُّهم ونشَّطوه على عزمهِ وسلَّموا اليهِ القيام بهذا العمل المجيد

وكان ازاء كنيسة جسد الربّ بيتٌ مؤلَّف من ست طبقات ، وفي مقدَّمهِ قنطرة مصبوغة بلونٍ احمر ، ما جعل الناس يطلقون على ذلك البناء لقب القنطرة الحمراء (La Volta Rossa) . فاستأجر كوتولنكو غرفتين هنالك ، وأقبل اليهِ رجلٌ صالح من تورينو اسمهُ توما رولاندو ، قدَّم نفسه لمساعدة رجل الله ، وأسرع فحمل على ظهرهِ الاربعة الاسرَّة الاولى لعلاج اربعة مرضى

واخذت العناية الالهيَّة تبسط يدها الى هذا « البيت الصغير » كما كان يدعوه كوتولنكو ، فحُمل اليهِ شيخٌ مخلَّع ، فاستقبلهُ الطوبوي بكل بشاشة وفرح ، وسمَّاه « حجَر الزاوية » ، وكان ذلك في ١٧ من نيسان سنة ١٨٢٨

وكان كوتولنكو وصديقهُ رولاندو يفتشان عن المرضى المُهملين ليأتيا بهم

وفي ذات يوم قال كوتولنكو لرولاندو : انا عارفٌ أيُّها الصديق الحبيب انك تحبُّ الخمر الجيّدة ، فها انا اهدي لك منها قنينةً كبيرة ، فهيَّا الى شارع « مونكاليارى » فتجد هناك مريضاً بائساً ينتظرك ، فكن كمألوف عادتك بشوشاً لطيفاً واحملهُ الى القنطرة الحمراء بكلّ نشاط وهمَّة

وما هو غير حينٍ حتى عاد رولاندو والعرق يتصبب من جسمهِ ، وبعد ان القى المريض على السرير أخرج منديلهُ واخذ يمسح العرق عن وجههِ ويقول : لله من خمرةِ هذا القانوني ، ما أطيبها ، لكني اراها مخالفةً لكل الخمور ، فانها تخرج من البدن بدلًا من أن تدخل فيهِ ، ومن محاسنها انها لا تصعد الى الرأس أصلًا

وأخذ هذا العمل يزدهر مسرعاً ، حتى اصبح المستشفى يعوزه الى مساعدين . فتقدمت عشر سيّدات من تلقاء أنفسهنَّ ، وتعهَّدن بخدمة المرضى مع المحافظة على أعمال بيوتهنَّ . لكن ذلك لم يكن كافياً لحاجات المستشفى ، فاخذ كوتولنكو يسعى

لتأسيس عمل كان يفكّر فيهِ منذ زمان، وهو ان يُنشئ على مثال القديس منصور دي بول جمعيّة ممرّضات. فساعدتهُ في هذا العمل سيّدة فاضلة تُدعى ارملة نازي (Nasi) ثمَّ انتظم في هذا السلك عدَّة فتيات دعاهنَّ كوتولنكو بنات القديس منصور. امَّا الشعب فكان يدعوهنَّ بنات كوتولنكو

وكان الطوبويّ كلَّما فرغت غرفة من تلك الدار الكبيرة، أسرع الى استئجارها حتى استولى على معظم مساكنها. وكان الاطباء والصيادلة يتسابقون الى تطبيب مرضاهُ ومداواتهم مجَّاناً

وكان أصحابهُ يحاولون ان يثنوا عزمهُ عن مواصلة هذا العمل، حتى انَّ الكهنة رفقاءهُ في كنيسة جسد الربّ ورئيسهم الشانوان ڤالتّي (Valetti) أصبحوا في خوف من ان يعجز كوتولنكو عن القيام بنفقاتهِ الكثيرة. امَّا رجل الله فلم يكن يهتمّ للحال، وكان كلَّما قالوا لهُ انَّ الديون تتكاثر علينا يبتسم ويقول: «لا تخافوا، فانَّ الله عارفٌ بيوم استحقاقها، وإنَّ العناية الالهية ساهرة على مرضانا، فلن يعوزهم شيء». وحقيقة الامر انَّ العناية الالهية كانت عند الحاجة تسرعُ الى اعانتهِ باساليب مدهشة عجيبة.

ففي سنة ١٨٣١ حدث ان انتشر الوباء المعروف بالهواء الاصفر، وأصبحت مدينة تورينو في خطر منه. فاضطربت فيها الخواطر، واقبلت الحكومة تنظر في الاماكن التي يُخشى من ان تكون سبباً في وصول الوباء. فوجدت ان محلَّة القنطرة الحمراء ليست من النظافة على ما يُرام، وان هنالك مستشفى للمرضى، فأمرت باقفالهِ حالاً. وارسل وزير الداخلية بالامر الى رئيس كنيسة جسد الربّ، فأسرع هذا واستقدم كوتولنكو وقال لهُ: كم مرَّة قلت لك انَّ مستشفاك هذا سيكون لنا منهُ اضطراب وقلق، فخذ واقرأ. قال ورفع اليهِ صورة الامر، فقرأه كوتولنكو ولم ينله أقلُّ خوف. ولمَّا انتهى منه التفت الى رئيسهِ متبسّماً وقال: «يا ابتِ الجليل، ان كلامك هذا يدلُّ على انك لست مثلي من قرية «براء» وانكَ لا تعرف شيئاً من اصول زراعة الملفوف. امَّا انا فهذه البلدة وطني وقد طالما سمعت الناس فيها يقولون، انَّ الملفوف اذا نُقل من محلّ الى آخر، نما وأخصب والتفّ. وانا أرى انَّ العناية الالهية تريد ان ننقل هذا المستشفى الى غير مكان لينمو ويزدهر». فنُقلت المرضى من القنطرة

الحمراء، ووُزعت على عدة مستشفيات

وكان بعد أيام، أن لقي كوتولنكو في الطريق فتاةً فقيرة في الثانية عشرة من عمرها، وقد تخلّى عنها اهلها. فقال لارملة نازي: ما اكثر البنات اللواتي في هذا العمر وفي هذه الحالة، وما اشدَّ الاخطار التي يتعرَّضن لها. ثم تبسَّم وقال: «انَّ غُرَفنا في «القنطرة الحمراء» قد اصبحت فارغة، ولا يجمل بنا ان نؤدّي كراءها وهي خاوية خالية. واني ارى انَّ العناية تُرسل الينا مستأجرين في هؤلاء البنات، وأحسبُ انَّ هذه الفتاة الصغيرة ستكون حجر الاساس لعائلة جديدة». وما مرَّ على هذا الكلام حين حتى اصبح عددُ هذهِ العائلة الجديدة ١٢٦ بنتاً

ثم اتّخذ رجل الله غُرفاً جديدة في نزلٍ يخصّ ارملة نازي. وكان لا يزال عندهُ في «القنطرة الحمراء» غُرف فارغة. فأنشأ ملجأين جديدين لصغار اولاد العملة: فكان يبقيهم في النهار عنده ويقوم بمعاشهم الروحي والجسدي، وعند المساء يُعطي كلَّ صغيرٍ منهم قطعة خبز كبيرة، ويعود بهِ الى اهلهِ. فنجح هذا العمل الجديد وتفرَّعت منهُ اغصان عديدة

ولمَّا رأى الطوبوي ان لم يعد لهُ أن يقبل مرضى في ملاجئهِ، اخذ يزورهم في منازلهم ويخدمهم ويسهر على راحتهم. فعنَّ لهُ من ذلك خاطرٌ جديد، وهو ان يُنشئ جمعية اخوات ممرّضات يَعُدن المرضى في منازلهم. وكان رولاندو الامين يبحث عن اماكن البيوت، وكوتولنكو يفحص عن حالتها الادبيَّة، حتى اذا رأى أن لا خوف على الممرّضات أرسلهنَّ اثنتين اثنتين. وكان رولاندو يُسرج قنديلهُ ويسير امامهنَّ في الطرق المظلمة، وكان لا يتأخَّر ايضاً عن مرافقة معلمهِ في امثال هذه الدورات

وقال لهُ كوتولنكو يوماً: انا لا أُريد يا رولاندو ان تتشكّى مني ابداً، فانك رجلٌ نشيط، طيب السريرة، ولك عندي مقامٌ ومعزَّة، لذلك رأيتُ أن أُهدي اليك ايضاً قنينة من اجود الخمور. وكان رولاندو قد عرف ما خمرة معلّمهِ. فخرجا وعلى اكتافهما أحمالٌ ثقيلة، حتى وصلا الى بيت خَرِب، فقال الطوبوي: هاك الخمّارة، فاصعد على هذا السلّم الخشبي، فتجد في هاتيك الغرفة الحقيرة عائلةً مسكينة، فأعطِها هذا. وهذا.. وهذا ايضاً

وقد أخبر رولاندو المذكور ان رجل الله كان يسير بهذا السير مراراً في الاسبوع،

وأحياناً في كلّ يوم، فيتوجّهان الى العائلات المستورة ويُفرجان كربتها

وكان كوتولنكو يطلب من الفقراء المساكين أن يؤدّوا اليهِ ثمن مـا يأتيهم بهِ، ولم يكن ذلك الثمن الاّ صلاة الشكر للعناية الالهية

وأوحى الله الى عبدهِ كوتولنكو قبـل ارتقاء بيوس العاشر الى عرش البـابوية بنصف قرن، ان ينشر التناول اليومي ويقوت الاحداث بخبز الحياة. وكانت الاربع والثلاثون عائلةً، التي اواها كوتولنكو في «البيت الصغير»، تتناول القربان المقدس في كل يوم

ورتّب كوتولنكو ايضاً عمل السجود للقربان من الصباح الى المساء، وكان ذلك فاتحةً لسجود دائم انشأهُ رجل الله في البيت الصغير

وانّ في كنيسة جسد الرب صورةً جليلة مؤثرة، تُدعى «سيدة النعمة»، تمثّل البتول العذراء وهي ترضع طفلها. فامام مذبح هذه السيدة، كان الله يُلهم عبـده كوتولنكو ان يؤسس اعماله المجيدة. وامام تلك القنطرة التي لا تزال الى الآن حمراء، يَرَى الزائرُ رُخامةً بيضاء، كتب عليها ما ترجمته :

« في هذا المنزل ابتدأ يوسف كوتولنكو وأسّس باربعة أسرّة بيت العناية الالهية الصغير سنة ١٨٢٨ »

(جمعية العملة في تورينو سنة ١٨٨١)

فلا يقرأ الزائرُ هذا الاثر العهيد حتى يرى فيهِ ذكراً مؤثراً

امّا في ايّامنا هذه فقد انتقلت تلك العناية العجيبة الى مكان آخر. ومـا إخالُ القارئ الكريم يتأخّرُ عن زيارتهِ. فهيّا بنا اذن الى خارج المدينة، حيث نرى هـذا المحل الجديد في ضاحية « وادي الشهداء »

٣ وادي الشهداء

اذا خرج الزائر من بيت « القنطرة الحمراء »، واتّجه الى ناحية اسوار تورينو في الجهة الشمالية الغربية، أطلّ على منخفض من الارض فسيح، يُدعى «وادي الشهداء» (Le Valdocco) ورأى في هذا الوادي ابنيةً شاهقة ومنازل عديدة، جاور بعضها بعضاً، فكانت أشبهَ بمدينة عامرة

وقد طالما سالت دماء المسيحيين في ارجاء هذا المنخفض، أيام كان الاضطهاد يحصد المسيحيين حصداً. ولذلك لقبوه بوادي الشهداء.

وقد تقلّبت الاحوال بهذا الوادي، فكان قبل ابتناء هذه المدينة فيه ضيعةٌ صغيرةٌ، فيها بضعة بيوت حقيرة وحانات وضيعة، ينتابها الاوباش والسكارى. لكن الدماء المقدّسة، التي سُفكت فيهِ في سابق العصور، أبتْ ان يبقى هذا المكان المقدّس مورداً للفجور والقبائح. وكأنَّ الله اوحى الى عبدهِ كوتولنكو ان يغادر «القنطرة الحمراء» وينتقل ببيتهِ الصغير الى هذا المكان ويؤسّس فيهِ من جديد بيت العناية الالهية، فيعيد الى «وادي الشهداء» سابق عطرهِ وغابر مجده، ويُصبح «البيت الصغير» عظيماً كبيراً

فاستأجر رجل الله في «وادي الشهداء» بيتاً فيهِ غرفتان واصطبل. ولم يكن للحكومة ان تمنع كوتولنكو من جعل هذا البيت مأوى للمرضى، لانهُ بعيدٌ عن المدينة ولا خوف عليها منهُ. وكان ذلك في ربيع سنة ١٨٣٢

منازل العناية الالهية في وادي الشهداء

وبعد ايام جاء ألبر اخو الطوبرى. فلمّا رأى هذا المستشفى الجديد التفت الى أخيهِ وقال: أراك وقد عُدتَ الى تأسيس المستشفيات، فكأني بك تعرّض نفسك ثانيةً لهزء الناس وسخريتهم. فاجابه كوتولنكو: أجل يا اخي، ثم اشار بيده الى تلك الارض الروحيَّة وقال: كأني ارى هذه الساحة الفيحاء وقد تغطّت بمنازل العناية الالهيَّة

ولما كانت هذه الضيعة ملجأ الفجّار والسكارى، غضب هؤلاء لمجيء كوتولنكو وراهباته، فاقبلوا يرشقون «البيت الصغير» بالحجارة ويصبُّون على الراهبات سيول الاهانات. فثارت الحميَّة في صدر كوتولنكو فخرج اليهم يوماً وانتهرهم وقال: «مهلاً سيأتي يوم تتبدَّل فيهِ هذه الرجاسات بقداسة وصلاح، فان الله سيُشيِّد في هذا المكان منازل عظيمة، فيها يمجَّد اسمهُ القدُّوس ليل نهار» وقد تحقَّقت النبوءة بعد قليل من الزمان

ولم يمرُّ على استئجار هذا البيت ايام. حتى اشترى كوتولنكو بيتاً آخر، وجعل فيهِ

٢٥ سريرًا ، وكتب على بابهِ باحرف كبيرة : توكّلوا عليهِ في كلّ حين (مزمور ٦١).
وصار عدد المرضى والراهبات يزداد يومًا فيومًا ، حتى اشتهى اولئك الاوباش الذين كانوا يرشقون «البيت الصغير» بالحجارة ان يكون لهم فيهِ سرير ، وان يحصلوا على رغيف من ارغفة العناية الالهية . وتحوَّلت احدى الحانات ، التي كان يتردَّد اليها العدد الاكبر من السكارى ، الى مستشفى وكتب على بابه : انَّ محبَّة المسيح تضطرُّنا (٢ قورنتية ٥ : ١٤)

وكان رجل الله كلّما اشترى بيتًا أطلق عليهِ اسمًا جديدًا . واليك بعضًا من تلك الاسماء : بيت العناية ، بيت الله ، بيت السيدة ، بيت لحم الخ . . اما هو فاتّخذ لهُ غرفةً في احد هذه البيوت دعاها «بيت الايمان» . وكان لا بدَّ للراهبات والمرضى من كنيسة . فلم يمضِ غير سنة حتى شيَّد الطوباوي معبدًا لله

وكان كلّما لاموهُ في اكثارهِ من قبول المرضى والبائسين أجاب : «ان البيت الصغير» كبيرٌ كبير ، ولسوف يتَّسع حتى يصل الى شواطئ «نهر الدورا» وانّنا لواصلون اليهِ بمعونة الله»

مضت الاشهر وتتابعت السنون ، فاتّسع «البيت الصغير» وطال ، وتفرَّعت منازلهُ حتى كادت تُتاخم شاطئ نهر الدورا الآنف الذكر . فكان البنيان فيهِ يلحق البنيان سنةً فسنة وهو الآن يسع بضعة آلاف . وقد كثُر بتعدُّد بيوتهِ عدد المرضى اللاجئين اليهِ فاصبح فيهِ ٤٣ طبيبًا يطبّبون مجّانًا ويقومون بخدمتهم على احدث منوال وأفخر طراز

واذا نظرت الى ذلك المستشفى المدعو باسم الام الحزينة (Addolorata) ، وهو احدث بناء بُني في «البيت الصغير» ، حسبتهُ قصرًا شاهقًا . فهو مؤلف من ثلاث طبقات ، فيهِ منامات واسعة يسعُ احدها ٧٠٠ سرير ، وردهات عظيمة للمصدورين والموبوئين وستّ ردهات لاجراء الاعمال الجراحية وغيرها . وما هذا سوى نعتٍ خارجي لاحد منازل «البيت الصغير» . فهلمَّ الآن ندخل فيهِ ونطَّلع على جميع اجزائهِ

العائلات وطبقاتها في منازل وادي الشهداء

اذا وصلت هذا الى البيت الصغير ، رأيتهُ ينقسم الى محلّتين عظيمتين احداهما للاناث

والاخرى للذكور . وفي كلتا هاتين المحلّتين اقسامٌ عديدة فيها السكّان موزَّعون بحسب اختلاف أعمارهم وتنوُّع امراضهم وتغايُر حاجاتهم الروحيَّة والزمنيَّة ، وهم مقسَّمون الى ٢٤ عائلة منها ١٤ تحت ادارة الراهبات ، ومن هذه الاربع عشرة سبعُ عائلات تلزم اديارَها ولا تُفارقها اصلاً

فامشِ الآن في هذه الطرق والازقَّة الطويلة احياناً والقصيرة اوقاتاً المتعرِّجة تارةً يميناً وطوراً شمالاً ، فهي تستقبلك عند دخولك البيت الصغير ، وانظر الى اليمين واليسار فترى ابنيـة عديدة ، بينمـا القسم الطبّي والقسم الجراحي وبيوت العواجز والكسحان والسقَّام والمخبَّلين والمخلّعين والمُقعَدين والجُدع والصُلم والجُذم الخ

وبعد ذلك ترى عائلةً اخرى تحت حماية القديس لويس ، وهي مؤلّفةٌ من اليتامى واللُّقطى ، واعمارُ هؤلاء من تسع الى اثنتي عشرة سنة ، ولهم راهبـات يعتنين بهم ويثقّفنهم في مبادئ العلوم والمعارف ويعوّدنهم العيشة المسيحيَّة الحقَّة

واذا واصلتَ السير في شُعَبِ احدى تلك الطرق ، رأيت ايضاً محلًّا آخر للبنات . وهؤلاء ايضاً تحت حماية القديس لويس يتعلّمن القراءة والكتابة والحساب ، ويتمرَّنَّ على الاعمال البيتيَّة والعناية بالمرضى ، فيكون منهنَّ ربَّات بيوت

واذا ترعرع الفتيان وأنسوا من نفوسهم صوتاً يدعوهم الى خدمة الله ، أمكنهم ان يدخلوا مدرسة اكليريكيَّة في البيت الصغير جُعلت تحت حماية القديس توما ، والَّا تعلّموا احدى الصناعات في عائلة اخرى تُدعى عائلة القديس مبارك

واذا شبَّ اولئك الفتيان ، وارادوا الرجوع الى اهلهم ، خرجوا وهم يشكرون فضل العناية الالهية التي أهّلتهم للحصول على مراكز بين الناس

امَّا عدد عائلة القديس لويس فيبلغ بضع مئات ، بينهم نحو من خمسين اكليريكيًّا . ومن هؤلاء الخمسين يُسامُ في كلّ عام كهنة يزيـدون البيت الصغير حياةً وازدهاراً ، او ينصرفون الى اعمال الرسالة في الابرشيات وخدمـة النفوس في الرعايا وقـد ترقّى بعضهم الى مقام الاسقفيَّـة . وكثيرون منهم يعودون الى البيت الصغير اذا شاخوا ، فيقضون آخر حياتهم في هناء وصلاح

ثمَّ ترى بعد ذلك اخوة القديس منصور ، وجميع هؤلاء الاخوة اشداء ذوو عافية وقد تخصَّصوا بالاعمال التي تتطلّب سواعد قويَّة . ولهم كسائر العائلات ساعة خاصَّة

السجود امام القربان ، أمّا عددهم فيزيد على ١٣٠ اخاً ، وتراهم ابداً فرحين بحالتهم الوضيعة

مأوى الصم والبكم

وبقرب هؤلاء ، روضة أخرى ترى فيها اولاداً يلعبون ساكتين. واذا ابصروك رحّبوا بك ، واستقبلوك بتلك الابتسامة اللطيفة التي لا تبرح بادية على شفاه جميع سكان البيت الصغير . لكنك لا تسمع من هؤلاء الاولاد عبارة السلام التي يردّدها جميع عائلات كوتولنكو وهي «الشكر لله» .. لان ألسنة هؤلاء الصغار لا تقوى على الكلام ، فجميعهم صمّ بكم . لكنّهم ولو كانوا من اقطار مختلفة ، تعلّموا ان يتفاهموا ويصلّوا ويتكلموا بتلك اللغة التي تشملهم جميعاً ، ألا وهي لغة الخرسان اعني لغة الاشارة . وتراهم اذا حضروا اجتماعاً او دُعوا الى تمرين عام فهموا حالاً ما يُطلب منهم ، واندفعوا يعبّرون عن افكارهم باشارات مختلفة تدهش الناظر وقد جُعلت هذه العائلة تحت رعاية ذلك المخلّص الحبيب ، الذي جعل الخرس يتكلمون والصمّ يسمعون ، وتحت حماية القديس يوحنا المعمدان الذي ارتكض فرحاً وهو في احشاء أمه

المطاحن والمعاجن والافران وبيوت الصنائع

وترى في احدى شعب طرقك ، التي انت سائرٌ فيها ، نفقاً تحت قناطر عديدة ، فاذا دخلته أوصلك الى ساحة واسعة هي مَنشرٌ للثياب . واذا واصلت السير الى جانب حائط السور ، شاهدت جمعاً غفيراً امام بناء كبير وعليهم ملابس بيضاء ، فاذا دنوت منهم رأيت ان ذلك البياض ناتجٌ عن غبار الطحين المتطاير ، وانك قد وصلت الى طواحين البيت الصغير . امّا الاعمال هنا فكثيرة لكثرة آلات الطحن الكهربائية والبخاريّة ، وكلها من احدث طراز ، وهم يطحنون فيها حاجة كل يوم في يومه

والى جانب هذا المكان محلّ آخر للعجن ، وثلاثة افران يعمل فيها خُرسان أشدّاء تعينهم ايضاً عائلة العواجز والكسح ، ولا تزال بشائر المسرّة طافحة من وجوههم ، وترى الخبز يخرج من ايديهم نظيفاً شهيّاً . ولمّا كان العملة في هذا المحل

كثيرين فلا يشتغلون الّا ساعات قليلة ، فإذا انتهوا خرجوا ليرتاحوا في . . . الكنيسة
ولا يمكن ان تجد في البيت انساناً بطّالاً ، فالجميع يعملون بقدر استطاعتهم ،
فترى هنا رجلاً مقطوع الرجل ينفخ بمنفخ كبير ، وهناك مُقعَدًا يخيط الثياب ، وغيرهما
كثيرين يتعاونون بما بقي لهم من الاعضاء السليمة ، على التجليد والنجـارة والحدادة
وعمل الأحذية الخ

واذا احتاج البيت الصغير الى صنّاع ماهرين استقدمهم من الخارج ، واذا انتهى
وقت الشغل ودقّت الساعة ، ترك كلُّ ذي عمل عمله ، ونهضوا جميعاً للذهـاب الى
الكنيسة لأداء ساعة السجود ، فيكون عند ذالك مشهدٌ لطيفٌ مؤثر ، ترى فيـه
العميان وقد حملوا المُقعدين ، فتشاهد ظهورًا محنيَّةً ، وقاماتٍ وقد طالت بها على اكتافها
من الاحمال البشريّة ، فتنظر هذا يُسرع في مشيه ، وذاك يتهادى ، وذاك يدلف ،
وغيرهم يكدح كدحاً ، وآخرين يعرجون ، وجميعهم متّجهون الى بيت ذالك الالـه
الذي يدعو الجميع

بيوت الصرعى والمجانين

واذا واصلت السير وبعدت عن هذا المكان ، شاهدت بيتاً مغلقةً ابوابُهُ ، فاذا
أشرفت من احدى نوافذه ، رأيت على وجوه القوم الذين فيه ، تلك الابتسامة المعهودة ،
ممزوجةً بعاطفة تشغل الفكر ، فانّ هؤلاء المساكين قلّما يقربهم الناس ، وانّ اصحاب
البيت الصغير لا يكادون ، مع جميع ما لهم من العناية والسهر ، أن يستطيعوا تهدئة
هؤلاء المُبتلين بالصرع . وقد شاء كوتولنكو ان يكون فرشُ هـذا البيت فاخرًا ،
ترويحاً لبال من هم فيه وتنزيهاً لخواطرهم

واذا جزتَ هذا المكان ، وخطوتَ بضع خطوات ، شاهـدت بيتاً آخر يُدعى
بيت لحم يسكنهُ ذوو العقول المريضة . والى جانب هذا البيت بيتٌ آخر ، للـذين
تشتدُّ بهم اعراض الجنون ، فاذا دنوت منهُ استقبلـك صياحٌ وجلبة وضجيجٌ حتى
انك لا تكاد تقف هنالك لحظة ، بينما انك ترى الراهبات يقضين حياتهنَّ فيه

ولا يسع احدًا أن يدعو هؤلاء بُلهاً أو مجانين ، مخافة أن يخالف الرقّة المرعيَّـة
في جميع ارجاء البيت الصغير . فقد أطلق عليهم كوتولنكو لقب « المحروسين »

أمّا العناية التي تُبذل ،لإراحة هؤلاء «المحروسين» وتنظيفهم وإطعامهم ،فيعجز القلم عن وصفها . وقد اتّصلت الراهبات ، بأساليب اللطف وافانين الصبر ، الى ان يخفّفنَ شيئاً من هياج اولئك المترهين ، وان يؤهّبنَهم لتناول القربان الاقدس في بعض الاحوال

قال كوتولنكو: ان ما يعززُ البيت الصغير ،ويحبّبهُ الى الله والناس ، انما هوالعناية بهؤلاء البُله ، الذين تنحّى الناس عنهم وطردوهم من منازلهم ،فهؤلاء هم لنا بمثابة سَفتجات (كمبيالات) على كرم العناية الالهية . لذلك كان كوتولنكو يعطف عليهم اشدّ العطف ويمازحهم ويُداعبهم

وحدث يوماً أن جاء مطران ڤرسيلّي (Vercelli) ليزور كوتولنكو ، فطلبهُ فوجدهُ في ساحة «المحروسين» ، يُلاعب بالكرة واحداً منهم اسمه دورو (Doro) . وكان دورو هذا آخر وأحطّ انسانٍ في سكان البيت الصغير ، لذلك كان كوتولنكو يحنو عليهِ حنوًّا خاصاً ، فاضطرّ المطران أن ينتظر نهاية اللعب ، واخذ هو نفسهُ يقيّد لهما علامات الغالب والمغلوب . ولبث كوتولنكو يستعمل الحيلة ويُظهر الضعف في اللعب حتى غلبهُ دورو . فاستأذنهُ كوتولنكو اذ ذاك وانصرف مع المطران . ولمّا سُئل كوتولنكو عن ذلك قال: لم أجد من قلبي ان أقطع دور اللعب مخافة ان يغتمّ عزيزي دورو

وكان بين اولئك «المحروسين» رجلٌ زِعنفة قصير او قل مسخاً وحشيًّا ليس لهُ رجلان، يزحف على الارض زحفاً ويعضُّ كالوحوش الآبدة وكان لا يُقمَعُ ولا ينقادُ لشيء . فتولّى كوتولنكو امر تدبيرهِ فكان يلاطفهُ ويباسطهُ ويقدّم لهُ انواع الحلوى وما زال بهِ على هذا وذاك حتى ظهرت على وجه ذلك المسخ شارات الأُنس فصار يبسم ويهشّ . وواصل كوتولنكو عنايته بتلميذهِ حتى صيّره شبيهاً بانسان

منازل النساء

لقد زرنا الآن أيُّها القارئ الكريم محلّة الرجال ، واطّلعنا بقدر الامكان على حالاتهم المختلفة ، ووقفنا على ضروب العناية بهم . فاتبعني الآن الى محلّة النساء ، وهذه غير قريبةٍ من هنا . فاذا بلغتَ اليها شاهدت جيشاً من اخوات القديس منصور ، وبينهنّ

اخوات القديسة مرتا القائمات بشؤون الطبخ وخدمة المرضى في الخارج

أمّا عائلات النساء في هذه المحلّة، فأشبه بعائلات الرجال، ولكن لمّا رأى كوتولنكو انّ عددهنّ يزداد ازدياداً عظيماً ارسل عدداً من الراهبات الى المدن والقرى وقال لهنّ: «اذهبنَ الى خدمة النفوس، ومتى بلغتنّ سنّ الشيخوخة ترجعن الى البيت الصغير، ولسوف يدهشكنّ نموّهُ وازدهارهُ»

العاملات بالخياطة والغسل والطبخ

ثمّ ترى في هذه المحلّة فتيات صغيرات، تحت حماية القديسة جنفياف والقديس لويس، وغيرهنّ تحت حماية مريم المجدلية، وأُخر تحت حماية القديسة كلارا، وهؤلاء يعتنين بالخياطة واصلاح الثياب، وبينهنّ راهبات مثقّفات، يقمنَ بشرح التعليم المسيحي، ويؤهّبنَ النفوس لاقتبال القربان المقدّس، الى غير ما هنالك من جمعيات الراهبات، من مثل جمعية القديسة إليانه (S^te Eliane)، اللواتي ينهضن بغسيل الثياب، يتمّمن هذه الخدمة الوضيعة وهنّ يرتّلنَ طلبة السيدة بكل فرح، وغيرهنّ ايضاً تحت رعاية الصليب المقدّس، يعتنين بطيّ الثياب وترتيبها،

وهذه الخِدم جميعها تُتمَّم بكلّ عناية وتدقيق

أمّا الاطعمة فتُعدُّ بكلّ سخاء، وهي من أفخر وألذّ ما يؤكل. وقد طالما ردّد كوتولنكو على مسامع الراهبات هذه الكلمات وهي: حذارِ من التقتير في النفقات، فان الله يُريد ان يعيش فقراء البيت الصغير عيش الهناء والسرور. وانّنا في خدمتهم نخدم السيّد المسيح، فالفقراء عندنا هم سادات هذا البيت، فيجب ان يُعتنى بهم أقصى عناية، حتى لا يجد احدٌ سبيلاً الى الشكوى. ولتُقدَّم لهم القهوة في كل صباح، ممزوجة بحليب صرف لا أثر للماء فيه، ولتكن الاثمار والحلويات من أفخر نوع، واللحوم والخضر من اوّل طبقة، فان الله الذي يحبّ هذا البيت الصغير، يرى كلّ ما نعملُ فيه

أمّا كوتولنكو فكان يعيش عيشاً فقرياً قشفاً

ديرا الصلاة والنوح

وبين جمعيات الراهبات جمعية انشأها ايضاً كوتولنكو، ودير هـا على احدى

روابي كاڤورتّو (Cavoretto) ديرٌ آخر يُدعى دير الصلوات ، ففي هذين الديرين وغيرهما يُحفظ الصمت التام ، وتُمارس الاصوام والاماتات ، وتُقام الصلوات المتواترة من اجل راحة النفوس المطهرية ، تعويضاً عن فواحش الناس ، واستمطاراً للنعم الالهية على البيت الصغير وعلى العالم كله

ومن اديار البيت الصغير ، ديرٌ للنساء اللواتي بعد أن خسرن العفاف والطهارة ، رجعنَ الى الله تائبات ، فهنَّ في هذا الدير يمارسن ، بكل طيبة خاطر ، انواع الاصوام والاماتات ، ويواظبنَ على الصلوات تكفيراً عن حياتهنَّ الماضية ، وتعويضاً عن النساء الخاطئات . وكان كوتولنكو قد انشأ هذا الدير في خارج البيت الصغير ، ثم نقلهُ اليهِ

دير الراهبات الخرس

ولا يسعنا السكوت عن ذكر ذلك الدير العجيب الفريد الذي طالما فكَّر كوتولنكو فيه ، ووكلَ الى خلفهِ الاب انكليسيو (Anglesio) امرَ أنشائهِ ألا وهو دير البنات الخُرس . فان خادم الله كان يرى ، بين هؤلاء الخرس في البيت الصغير ، نفوساً تتوق الى حياة الكمال السامية ، وتشتهي ان تكون عرائس السيد المسيح . فتمَّ انشاء هذا الدير في سنة ١٨٤٨ . ولهؤلاء الخرس ، نذور رهبانية كسائر الراهبات ، وهنَّ يُقِمن الصلوات على طريقة خاصَّة مدهشة ، تحت حماية قلب مريم . فاذا انتهزتَ خُلسةً ، ونظرت من خلال ستارات النوافذ ، رأيت رؤوس هؤلاء الخرس محنيَّةً ، تجللها براقع بيضاء طويلة ، والإبَر تلمع بين انامِلهنَّ ، وهنَّ عاكفات على العمل يطرّزنَ الاقمشة الحريريَّة والكتانيَّة ، اللازمة للكنيسة وللملابس الكهنة . واليهنَّ موكول امر العناية بتنظيف بيت الله ، فترى الكنيسة ومذابحها وجميع ما فيها يتلألأ نظافةً واتقاناً وفي الليل يسجدنَ ساعتين امام القربان ، فتحيط بهنَّ ملائكة المذبح وتُصغي الى تلك الصلوات العجيبة التي تقيمها هؤلاء الخرس باشارات مُحكمة رقيقة تحيّر كلَّ ناظر

ومثل هذا الدير دير آخر منفردٌ لا تخرج الراهباتُ منهُ اصلاً وهنَّ يشتغلنَ بالتطريز والتخريم ، وتسافر صلواتهنَّ الى اقصى مكان في المعمور ، وتصل حتى الى مرسلي البلاد الافريقية ، حيث يوجد ايضاً عدد من راهبات البيت الصغير

الخاتمة

هذه هي خلاصة اعمال كوتولنكو ، ولولا ضيق المقام لذكرنا بعضاً من تلك العجائب الباهرة التي صنعها الله على يد عبده ، فيرى القرّاء انّ من اتّكل على الله لا يخيب

وافضل ما نختم به هذه المقالة كلمةٌ تصف لنا الاعمال الروحية ، التي تقامُ في كنائس البيت الصغير

قال كوتولنكو : ان العناية الالهية لا تخرج من هذا البيت ، بشرط ان لا تدخلهُ الخطيئة . وان دخلتهُ فلا اعود أضمن بقاء العناية الالهية فيهِ

لذلك انشأ كوتولنكو في كلّ عائلة معبداً ، فضلاً عن الكنيسة الكبرى ، التي لا تزال الصلوات قائمةً فيها ليلَ نهار

فعند الساعة الرابعة والنصف من كلّ صباح ، ينهض الجميع من النوم ويتوجّهون الى الكنيسة الكبرى ، بكلّ خشوع ونظام ، وهم يرتّلون ويسبّحون . ويسير امام كل عائلة صليبها الخاصُّ بها . فيكون عدد المجتمعين لا اقلّ من خمسة آلاف شخص

وهذه الكنيسة لا تزال مزدانةً بأفخر الاواني وأعطر الازهار ، كأنها في عيدٍ دائم . وفيها ثلاث باحاتٍ عظيمة : باحةٌ يُمنى للرجال ويُسرى للنساء ووُسطى للراهبات ، وهذه مفصولةٌ عن جارتيها بشعريّات عالية

فاذا دخلوا الكنيسة رتّلوا صلاة الروح القدس ، ثم يقفُ صبيٌّ صغير ، ويبدأ بصلاة الصبح قائلاً بصوتٍ عالٍ : ليكن اسما يسوع ومريم ممجّدين الى الابد . فتجيب تلك الجماهير بهتافٍ واحد ، امتزجت فيهِ اصوات الرجال والنساء والفتيان والاحداث ويعيدون قائلين : ليكن اسما يسوع ومريم ممجّدَين الى الابد . ثم تُقام الذبيحة الالهيّة . وعند التناول يتقدّم اربعة كهنةٍ ، ويوزّعون القربان الاقدس . امّا المرضى فيحضرون الذبيحة في معابدهم الخاصّة ، ويزيد عدد المناولات اليوميّة على اربعة آلاف وخمسمائة

والى جانب هذه الكنيسة الكبيرة معبدٌ ملاصقٌ لها ، وقد كان هذا المعبد غرفة الكوتولنكو . وعلى ذكر هذه الغرفة المباركة نقول :

كان لكوتولنكو طير كناري ذو لونٍ جميل وصوت صدّاح، واذ كان رجل الله ساجداً ذات يوم امام صورة البتول، دُعي لبعض الاعمال المعجّلة فعزَّ عليهِ ان يقطع تسبيحهُ فاتى بالكناري وجعلهُ امام البتول وقال لهُ: سبّح مكاني يا كنار

فاندفع الكنار يغرّد ويصدح الى حين رجوعهِ. وقد أنسلَ هذا الطائر طيوراً كثيرة وهي لا تزال تتناسل مقيمةً في هذا المعبد. فاذا بلغ وقت التناول في الكنيسة الكبيرة الملاصقة لهذا المعبد، وسكتت الجماهير، اندفعت تلك الطيور تصدح بأصواتها المطربة، فيخيّل اليك انك تسمع الحاناً سماوية

واذا انتهت الذبيحة الالهية، تناوبت العائلات على اقامة السجود للقربان من الصباح الى الساعة العاشرة ليلاً. وحينئذٍ تأتي الراهبات المتعبّدات، مع اللواتي كنَّ يشتغلنَ في النهار، فيتعاقبن على السجود الى الساعة الرابعة والنصف صباحاً. وفوق صحن الخورس متخّتٌ للراهبات المحصّنات، يتناوبن على السجود الدائم

امّا الاحتفالات البيعيّة العامّة فتتمّ بأُبّهة عظيمة، ويحضرها جميع العائلات فيكون من ذلك مشهد مؤثر خاشع

ولا يطلب سكان البيت الصغير، في جميع الصلوات التي يقيمونها ليل نهار الّا شيئاً واحداً وهو ان يُصيّرهم الله قديسين. ثمّ يشكرون للعناية الالهية صدقاتها الوافرة التي تُفيضها عليهم

وامّا عبارة السلام التي تردّدها عائلات البيت الصغير الوف مراتٍ في النهار فهي الشكر لله

قال احد الكتّاب الافاضل: انّ البيت الصغير هو صورة اورشليم السماوية، حيث الفرح الدائم والسرور الذي لا ينقضي

﴿ حاشية للمشرق ﴾ نضيف الى المقالة الممتعة السابقة انّ وفاة الكاهن كوتولنكو وقعت في ٣٠ نيسان سنة ١٨٤٢ كما كان هو سبق وأعلم بها كثيرين من اصحابه. وقد جرت بشفاعته في حياتهِ وبعد موتهِ عجائب وكرامات عديدة من ارتداد خطأة الى التوبة وتوفير اكياس دراهم وغلّات لقوت المساكين ونبوّات عديدة ومعرفة خفايا القلوب وشفاء مرضى الخ دفعت الكرسي الرسولي الى الاهتمام

بفحص سيرته وفضائله فامر البابا بيوس التاسع بمباشرة الدعوى لتطويبه في ١٩ حزيران ١٨٧٧ . وبعد ان ثبت للفاحصين سمو فضائله وصحّة معجزاته نظم السعيد الذكر بندكتوس الخامس عشر اسمهُ في عداد الطوباويين وسمح باكرامهِ علانيةً ومن المنتظر ان سيثبتهُ الحبر الاعظم في جملة القديسين فيعمّم اكرامهُ في كل الكنيسة

ومما لم يُذكر في المقالة ما نالهُ كوتولنكو من الامتيازات مع الرغم من نفورهِ عنها . فان الملك شرل‌البر ملك سردينية خوّلهُ الوسام الكبير المعروف بوسام القديسين موريس ولعازر ولولا خوفهُ من اهانة الملك لردّ حامليهِ اليهِ خائبين وكذلك منحهُ البابا غريغوريوس السادس عشر مع براءة لطيفة نوطاً جميلاً باعهُ كوتولنكو خفيةً ليبتاع بهِ طحيناً للفقراء . ومثلها جمعيّة باريس المدعوّة مونتيون فرنكلين (Montyon-Franklin) بايعاز امير اورليان وهبتهُ النوط الشرفي الذي تخصصهُ باكبر المحسنين الى العالم فارسلته لهُ على يد ملك سردينية شرل البر فاتاهُ بهِ ابنهُ ڤكتور عمانويل الذي صار بعد ذلك ملكاً على ايطالية . فتنهّد كوتولنكو صارخاً : « اواهُ متى يحوّل الناس عني نظرهم ويدعوني في خمولي ؟ »

ومماَّ يُعَدّ اليوم آيةً متَّصلة ثبات اعمال كوتولنكو بعدهُ منذ سنة وفاته الى اليوم اعني نيفاً وثمانين سنة فهي باقية كما كانت بل نامية بشناعته وعناية تلامذته الذين يسيرون على آثارهِ ويجرون على قوانينهِ . فكل من يعاين تلك المشروعات الجبّارة لا يتمالك من ان يصرخ قائلاً : انَّ هنا اصبعَ الله

شعراء النصرانيّة بعد الاسلام

شعراء الدولة الاموية (تابع)

للاب لويس شيخو اليسوعي

١٠ القطامي التّغلبي

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال عبد الله بن سلّام الجُمَحي في كتابه طبقات الشعراء

(ed. Heli,121): اسمهُ عُمَير بن شُتَيم بن عمرو احد بني بكر بن حُبَيب بن عمرو بن غَنم بن تَغلِب» والقُطامي بفتح القاف وضمها لقبٌ غلب عليهِ وهو اسم من اسماء الصَّقر معناه المحدِّد البصر الى الصيد لقولهِ (من الرَّجز):

يَصُكُّهن جانباً فجانبا صكَّ القُطاميِّ القطا القواربا

وقد لُقِّب ايضاً بلقب آخر فدُعي بصريع الغواني لقولهِ (من الطويل):

صَريعُ غوانٍ راقَهُنَّ ورُقْنَهُ لَدُنْ شَبَّ حتى شاب سودُ الذوائبِ

والقطاميّ من الأراقم والاراقمُ احياء من تغلب يجمعهم هذا الاسم وهم ستَّة جُشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحرث. قيل لهم ذلك امَّا من الرَّقم اي الكثير لعددهم وامَّا تشبيهاً بالأراقم اي الحيَّات لشبه عيونهم بها. وقد افتخر القطاميّ بنسبتهِ اليهم فقال (من الوافر)

ويَرْفِدُني الأراقمُ خيرَ رِفدٍ وشيبانُ بنُ ثعلبةَ القُرومُ

والقطاميّ ابن اخت الاخطل التغلبي الشهير السابق ذكرهُ.

وللقطامي التغلبي سميَّان شاعران مثلهُ الّا انَّهما اقلّ شهرةً ذكرهما الآمديُّ في كتابهِ المختلف والمؤتلف وكلاهما كان في زمانهِ في عهد بني اميَّة: احدهما القطامي الضَّبعي من ضبيعة بن ربيعة بن نزار كان ابوهُ من اصحاب خالد القسري والي الكوفة. والآخر القطامي الكلبيّ واسمهُ الحصين وهو ابو الشرقيّ الوليد بن القطامي

﴿دينهُ﴾ قال ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني (٢٠: ١١٨): وكان (القطاميّ) نصرانياً وهو شاعر اسلاميّ. فقولهُ «كان نصرانياً» يثبتهُ: اوَّلًا نسبهُ الى تغلب القبيلة المتحمّسة في دينها حتى ايَّام بني عبَّاس. وثانياً قرابتهُ الى الاخطل الراسخ في دينهِ النصراني كما رأيت والقطاميّ ابنُ اختهِ. وثالثاً افتخارهُ بقومهِ وبحروبها ومآثرها ما يدلُّ على مجاراتهِ لهديها. رابعاً ولا يخلو شعر القطامي من اشارات الى التوراة والكتب النصرانيَّة (اطلب كتابنا النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة ص ٢٦٣ و٢٧١)

أمَّا قول صاحب الاغاني انهُ «شاعر اسلامي» فليس معناهُ انهُ صار مسلماً بل انهُ عاش في الاسلام ولم يبلغ عهد الجاهليَّة كالمخضرمين . ولعلَّ هذا الذي خدع ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال عن القطامي «كان نصرانياً فأسلم» وهو اوَّل من قال بذلك وابن عساكر من كتبة القرن السادس للهجرة (توُفي سنة ٥٧٢ هـ) وعنهُ اخذ الذين قالوا باسلام القطامي كعبد القادر البغدادي (في الخزانة ١ : ٣٩٣) وصاحب معاهد التنصيص . وقد جنح الى ذلك ايضاً المستشرق الالماني «بَرْث» (Barth) الذي نشر ديوانهُ فعَدَّهُ من المسلمين مستشهدًا بابن عساكر . وليس في نسخ ديوان القطامي ما يؤيّدهُ في ذكر نسبهِ الَّا انَّ بعض النسَّاخ زاد ذلك على هامش نسخة مصر مستندًا الى ابن عساكر . أمَّا ما ورد في بعض ابيات القطامي من مدح الاسلام والمسلمين فيمكن حَملهُ على المجاملة كما ترى في شعر الاخطل

❊اخبارهُ❊ لا يُعرف الَّا القليل من اخبار القطامي أزهر في القسم الثاني من القرن السابع في أيَّام الامويين بعد معاوية وكانَ معاصرًا للاخطل وهو اصغر منهُ سنًّا فعاش زمناً بعدهُ ولم يبلغ عهد بني عباس . وللقطامي ذكرٌ في حروب قومهِ التي جرت لهم مع القيسيين ومرَّ وصفها في ترجمة الاخطل (المشرق ٢٢ [١٩٢٤] : ٩٢٣) . ومن أيَّام تلك الحرب يوم ماكِسين ويقال لهُ ايضاً يوم القناطرة . وماكسين قرية لبني تغلب على شاطئ الفرات تبعد عن رأس العين مسيرة يوم جنوباً وبها حَمَّة . قال البكري في معجم ما استعجم (ص ٥٣٣) : «وبهذه القرية لَقِي عُمَير بن الحُباب بني تغلب حين غزاهم فاقتتلوا عند قنطرة القرية وهي اوَّل قرية تراجعوا فيها فقُتل فيها من تغلب زهاء خمسمائة وكان رئيسهم ورئيس من معهم من النَّمر وبكر شُعَيثَ بن مُلَيل» . أمَّا في الاغاني (٢٠ : ١٢٨) فيقول انَّ «رئيس تغلب يومئذٍ عبدالله بن شُرَيح بن مرَّة . . فقُتل وقُتل اخوهُ» . قال : « وأُسر القطاميّ الشاعر وأُخذت إبلهُ فاصاب عُمَير واصحابهُ شيئاً كثيرًا من النعم . . . ولمَّا أُسر القطامي أتى زُفَر بن الحرث بقرقيسيا فخلَّى سبيلَهُ وردَّ عليهِ مائة ناقة كما ذكر ادهم بن عمران العبديّ» فنظم القطامي القصائد في مديح زفر كما سترى

ولم يتَّصل القطاميُّ بالخلفاء كمواطنهِ الاخطل وانَّما بلغ شعرهُ عبد الملك بن مروان فاثنى على جودة قريحتهِ . وليس في اخبارهِ ما يدلُّ على تقرُّبهِ من الخلفاء على

انهُ جاء في نسخة مصر انَّ القطاميَّ قال في مديح عبد الملك قصيدتهُ الرائيَّة التي اوَّلها (من الوافر) :

أَمِنْ طَرَبٍ بكيتَ وذكرِ أهلٍ وللطَرَبِ المُتاحِ لك أذكارُ

ولا بُدَّ انَّها أصابت موقعاً لدى عبدالملك وهي عامرة الابيات الّا انّنا لم نجد في اخبار القطاميّ ما يُشير الى دخولهِ على هذا الخليفة ونَيلهِ سوابغهُ . وفيها يقول ونعم القول :

اميرُ المؤمنين هُدًى ونورٌ كما جَلَّى دُجى الظُّلَمِ النَهارُ

قريعُ بني أُميَّةَ من قريشٍ همُ البِرُّ المهذَّبُ والنُّضارُ

وعبدُ المَلْكِ للفقراء طُعْمٌ وحِرزٌ ليس مَعقِلُهُ يُضارُ

وقد حملَ الخلافةَ ثمَّ حلَّتْ بها عند آبْنِ مروانَ القَرارُ

امَّا اخصّ مديحهِ فهو في زفر الكلابي وفي بعض الاعيان كعبد الواحد بن سليمان وهو ابن عم عبد الملك وكأسماء بن خارجة الفزاريّ

﴿شعرهُ وديوانهُ﴾ القطاميّ يُعدُّ بين الشعراء المُقلّين . وقد نظمهُ الجُمَحيّ في كتاب طبقات الشعراء (ص ١٢١-١٢٢) في جملة شعراء الطبقة الثانيـة في الاسلام وذكرهُ مع خُداش بن بِشر المعروف بالبعَيث الدارمي وكُثَيّر بن عبدالرحمان الخزاعيّ وغَيلان الشهير بذي الرُّمَّة

وقد وصف قدماء العرب القطامي بالشاعر الفحل واستحسنوا شعرهُ . قال الجمحي في طبقات الشعراء (ص١٢١) : كان القطامي شاعرًا فحلًا رقيق الحواشي حلو الشعر والاخطل أبعد منهُ ذكرًا وامتن شعرًا . وقال ابو هلال (حماسة ابي تمام ص١٧٠) : وكان القطامي فحلًا رقيق الحواشي كثير الامثال . وقال ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء (ص٤٥٣) : وكان (القطامي) حسن التشبيب رقيقهُ . وقال ابو البركات محمّد الغزّي العامري في كتابهِ تقريب المعاهد في شرح الشواهد (نسخة مكتبتنا الشرقيَّة ص٦١) : هو شاعر اسلاميّ مُقلّ فحلٌ مجيد

وجاء في الاغاني (٢٠: ١١٨) عن الشَّعبيِّ قال: قال عبد الملك بن مروان وانا حاضر للاخطل: يا أخطل أتحبّ انَّ لك بشعرك شعرَ شاعرٍ من العرب؟ قال: اللهمَّ لا إلّا شاعرًا منّا مُغدَف القناع خامل الذكر حديث السنّ إن يكن في احدٍ خيرٌ فيكون فيهِ ولوددتُ انّي سبقتهُ الى قولهِ (من البسيط):

يَقْتُلْنَنَا بحديثٍ ليس يَعلَمُهُ   من يَتَّقِين ولا مكنونُهُ بادِ

فهنَّ يَنْبُذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ بهِ   مواقعَ الماء من ذي الغُلَّةِ الصادي

امّا ديوانهُ فقد صبر على كوارث الزمان. فقد ذكرهُ الحاج خليفة في كشف الظنون (٣: ٣٠٢) وقد تصحَّف هناك اسمهُ « بالقدامي عمير بن سيم » (كذا) . وفي طبعة الاستانة (ص٥١٩) «عمرو بن سليم». وفي كلاهما تُذكر سنة وفاتهِ في ١٠١هـ الموافقة للسنة ٧١٩ م. وديوان القطامي شرَحهُ كما يُروى في عرض ديوانهِ ابو سعيد الحسن السكَّري. ومنهُ نسختان الواحدة في برلين (Ahlwardt, VI, p. 548) كُتبت سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٤م) وقابلها ابو علي المرزوقي. والاخرى في المكتبة الخديويَّة تاريخها ١٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) وعنها نُقلت نسخة مكتبتنا الشرقيَّة

وقد دخلت من شعر القطاميّ قصيدتهُ اللاميَّة في جمهرة شعراء العرب فنظمها هناك ابو زيد القرشي في جملة المَشُوبات (طبعة مصر ١٥١) ارادوا بها القصائد ذات المعاني المختلطة

وقد اهتمَّ بنشر النخسة البرلينيَّة المرحوم المستشرق بَرْت (G. Barth) طبعها سنة ١٩٠٢ في ليدن ونقلها الى الالمانيَّة وعلَّق عليها عدَّة ملحوظات مع روايات شتّى وجدها في نسخة مصر وفي مخطوطات ومطبوعات الادباء. وها نحن ننقل نُتَفًا منها ونضيف اليها ما وقفنا عليهِ في ابحاثنا الخاصَّة عن هذا الشاعر في بعض مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة والمطبوعات الحديثة

﴿منتخبات من شعر القطامي﴾ من اجود شعر القطامي لاميَّتهُ المعروفة بالمَشوبة. وقد ذكر في الاغاني (٢٠: ١١٩) ما كان الباعث لنظمها قال: قال ابو عمرو بن العلاء: اوَّل ما حرَّك من القطامي ورفع من ذكرهِ انهُ قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحهُ فقيل لهُ انهُ بخيل لا يُعطي الشعراء. وقيل بل قَدِمها في خلافة عُمر

ابن عبد العزيز فقيل لهُ انّ الشعر لا ينفُقُ عند هذا ولا يُعطي شيئاً. وهذا عبد الواحد ابن سليمان(١ فأمدحهُ وكان عبد الواحد ابن عمّ الخليفة عبد الملك بن مروان فمدحَهُ بقصيدتهِ اللاميَّة التي اوَّلها (من البسيط) :

انا مُحيُّوكَ فاْسلَمْ ايُّها الطَّلَلُ وان بَليتَ وانْ طالت بك الطِيَلُ

فقال لهُ: كم أمَّلتَ من امير المؤمنين. قال: أمَّلتُ من امير المؤمنين ان يعطيني ثلاثين ناقة. فقال: قد امرتُ لك بخمسين ناقة موقَرة بُرًّا وتمرًا وثياباً. ثم امر بدفع ذلك اليهِ. وفيها يقول مادحاً لعبد الواحد ولقريش :

أهلَ المدينة لا يَحزُنْكَ شأنهم اذا تَخطَّأ عبدَ الواحد الأَجَلُ
امَّا قريشٌ فلن تلقاهُمُ أبدًا إلّا وهم خيرُ من يَحفَى ويَنتعلُ
الّا وهم جبَلُ اللهِ الذي قَصُرَتْ عنهُ الجبالُ فما ساوى بهِ جَبَلُ
همُ الملوكُ وابناء الملوك لهم والآخذون بهِ والساسةُ الأُوَلُ

وفي هذه اللاميَّة يقول متمثِّلًا :

والعيشُ لا عيشَ الّا ما تَقرُّ بهِ عينٌ ولا حالَ الّا سوف تنتقلُ
والناسُ مَنْ يَلقَ خيرًا قائلونَ بهِ ما يشتهي ولِأُمّ المُخطىءِ الهَبَلُ
قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجتهِ وقد يكون مع المستعجلِ الزَّلَلُ

وزاد في الحماسة البصريَّة بيتاً لم يُروَ في الديوان :

وربّما فاتَ قوماً بعضُ أمرِهمُ منَ التأنّي وكان الحَزْمُ لو عجلوا

امَّا في الاغاني (٢٠ : ١٢٠) فلهذا البيت رواية اخرى عن لسان رجل كان يُديم الاسفار سافر الى الشام ومعهُ اعرابيّ فتمثّل ببيت القطامي «قد يدرك الخ» فقال: ما

١) وفي معجم البلدان لياقوت (٤: ٤٨٩) يدعوهُ عبد الواحد بن الحارث بن الحكم

زاد قائل هذا الشعر على ان يثبط الناس عن الحزم فهلّا قال بعد بيتهِ هذا :

وربّما ضرَّ بعض الناس بُطؤهمُ ... وكان خيرًا لهم لو أنّهم عجلوا

ولهُ في زفر بن الحرث الكلابي الذي اطلق سبيلهُ من الاسر قصائد عامرة الابيات. اشهرها عينيّتهُ التي افتتحها بقولهِ يخاطب ضباعة ابنة زفر (من الوافر):

قِفي قبلَ التفرّقِ يا ضُباعا ... ولا يكُ موقفٌ منكِ الوَداعا

قِفي فادي أسيركِ انَّ قومي ... وقومَكِ لا أرى لهمُ اجتماعا

ألَمْ يحزُنكِ أنَّ جبالَ قيسٍ ... وتغلبَ قد تبايَنتِ انقطاعا

ألم يحزنكِ انَّ ابنَيْ نزارٍ ... أسالا من دمائهما التِلاعا

ومنها في شكر زُفر على تخلية سبيلهِ وانعامهِ عليهِ بمائة ناقة :

أكُفرًا بعد ردِّ الموتِ عنّي ... وبعد عَطائكَ المائةَ الرِتاعا (١

إذن لَهلكتُ لو كانت صِغارٌ ... من الاخلاقِ تُبتَدَعُ ابتداعا (٢

فلم أرَ مُنعِمينَ أقلَّ منًّا ... وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا

من البِيض الوجوهِ بني نُفَيلٍ ... أبتْ أخلاقُهم الّا اتّساعا (٣

بني القَرْم الذي علمتْ مَعدٌّ ... تفرَّعَ قومُها سَعَةً وَباعا

وقد مدحهُ ايضاً بداليّتهِ التي يقول فيها (من البسيط)

من مُبلغٌ زُفَرَ القيسيَّ مِدْحَتَهُ ... من القطاميِّ قولًا غير إفنادِ (٤

---

١) أكفرًا اي أأجزيك كفرًا. والرتاع الراتعة في المرعى. ويروى: الرباعا اي التي تُنتَج في الربيع ٢) ابتدعَ الشيء استحدثهُ اي لو ابتدعتَ في امورًا صعابًا لهلكتُ

٣) بنو نُفَيل بن عمرو بن كلاب رهط زُفَر الممدوح

٤) غير إفناد اي لا كذب فيهِ

اني وإن كان قـومي ليس بينهم وبين قومكَ إلّا ضربةُ الهادي (١

مُثنٍ عليك بمـا اُستبقِيتَ معرفتي وقد تعرَّضَ مني مقتـلٌ بادِ (٢

فلن أثيبَـكَ بالنَّعماء مَشتمـةً ولن أبـدِّلَ إحساناً بـإفسادِ

فإن هجوتُكَ ما تمَّتْ مُكارَمتي وان مدحتُ فقد أحسنتَ إصفادي (٣

اذ الفوارسُ من قـيس بشِكَّتهم حولي شهودٌ وما قولي بشهَّادِ (٤

اذ يَعتريكَ رجـالٌ يسألون دمي ولو أطعتَهم أبكيتَ عوَّادي

فقد عصيتَهم والحربُ مُقبلـةٌ لا بل قدحتَ زناداً غيرَ صَلَّادِ (٥

والصِيـدُ آل نُفيـل خيرُ قومِهمُ عند الشتاء اذا ما ضُنَّ بالزادِ (٦

المـانعونَ غـداةَ الروعِ جاءَهمُ بالمَشرفيَّةِ من مـاضٍ ومُنآدِ (٧

ايامَ قومي مكـاني مُنصِبٌ لهمُ ولا يظنُّون إلّا انني رادي (٨

فأنتاشني لـك من غبراءَ مُظلمةٍ حبلٌ تضمَّن إصداري وايرادي (٩

فان قدَرتُ على خيرٍ جزَيتُ بهِ والله يجعلُ اقواماً بمِرصـادِ

قال الجمحي: لمّا سمع زفر هذا البيت قال: لا أقدرَكَ الله على ذلك . وقـال يمدح زفر ايضاً (من الرجز) :

---

١) الهادي العنق اي قطع الرؤوس

٢) استبقيت معرفتي اي استبقيتني لمعرفتك أيّاي اذ ظهر مني ما يستوجب قتلي

٣) الإصفاد العطيَّة ٤) الشكة السلاح ٥) يقال صَلَدَ الزند اذ لم يخرج نارًا ٦) الصيد الاشراف جمع أصيَد . وضنَّ بالزاد بخل به

٧) المشرفيَّة السيف . والماضي المستقيم والمُنآد المُعوَّج

٨) يقال أنصبَهُ اذا آلمهُ واوجعهُ . ويروى : مُنصِبٌ لهم . والرادي الهالك

٩) انتاشني تداركني الغبراء الارض . ويروى : من عَمَاء . ثمَّ شبَّه مخلّصه بحبلٍ مدَّهُ الله اليه فتشبَّث به ونجا

يا زُفَرُ بنَ الحارثِ ابنِ الاكرمِ قد كنت في الحيّ قديمَ المَقدَمِ (١
اذ أَحجم القومُ ولمّا تُحجِمِ انك وابنَيك حفظتمْ محرَمي (٢
وحقنَ اللهُ بكفَّيك دمي من بعد ما ذَبَّ لساني وفمي (٣
والرمحُ يهتزّ اهتزازَ المِحجَمِ (٤ من بعد ما اختلّ السنانُ مِعصَمي
أنقذتني من بطلٍ مُعَمَّمِ والخيلِ تحت العارضِ المسوَّمِ (٥
وتغلبٌ يدعونَ يا َللأَرقمِ (٦

ومن امثالهِ وحكمهِ قولهُ من قصيدة (من الكامل):

فأرى المعيشةَ انّما هي ساعةٌ فرحٌ وساعةُ كُربةٍ وتَحَنُّقِ
وأرى المنيَّةَ للرجالِ حبائلًا شَرَكًا يُعادُ بهِ لمن لم يَعلَقِ
واذا أصابك والحوادثُ جمَّةٌ حَدَثٌ حداك الى أخيك الأوثقِ
فهمُ الرجالُ وكلُّ ذلك منهمُ تَجِدنْ في رُحبٍ وفي متضيَّقِ
انَّ الرجالَ اذا طلبت نوالَهُمْ منهم خليلُ مَلاذةٍ وتملُّقِ
واخو مُكارَمةٍ على عِلّاتهِ فوجدتُ خيرَهُمُ خليلَ المَصدَقِ

وروى في الاغاني (٢٠ : ١٢٠) منها بيتاً لم يُروَ في الديوان

ليت الهمومَ عن الفؤادِ تفرَّجتْ وجلا التكلُّمُ للّسانِ المطلقِ

وقد أنشد الشعبيّ هذه الابيات عند الخليفة عبد الملك بن مروان فاستحسنها

١) ويروى: في الحرب كريم المقدمِ ٢) ويروى: انت وابناك صُنتم محرمي
٣) ذبَّ حفَّ وذبل ٤) المحجم آلة الحجَّام التي تمصّ الدمَ
٥) المعمَّم السيّد صاحب العمامة. والخيل المسوَّم المتاز بعلامتهِ
٦) يا للارقم يريد الاراقم قوم التغلبيين يدعون بعضهم بعضاً

عبد الملك وقال: أن ثكِلَت القطاميَّ أمُّهُ هذا والله الشعر

ولهُ في الوصف اقوال حسنة منها قولهُ في عجوز من بني محارب نزل عندها ضيفاً فبات بأسوإ ليلة فقال فيها من قصيدة (من الطويل):

وإنّي وان كان المسافرُ نازلاً ... وان كان ذا حقٍّ على الناس واجبِ
ولا بُدَّ أنَّ الضيفَ مُخبِرُ ما رأى ... مُخَبِّرُ اهلٍ او مُخَبِّرُ صاحبِ
سأُخبرُ بالأنباء عن امّ منزلٍ ... تضيَّفتُها بين العُذَيبِ فراسبِ (١
تقنَّعتُ في طَلٍّ وريحٍ تلفُّني ... وفي طِرمِساءٍ غيرِ ذاتِ كواكبِ (٢
الى حَيزَبونٍ توقدُ النارَ بعدما ... تلفَّعَتِ الظلماءُ من كلِّ جانبِ (٣
تصلَّى بها بَردَ الشتاء ولم تكن ... تخالُ وميضَ النارِ يبدو لراكبِ (٤
فما راعها إلّا بُغامُ مطيَّةٍ ... تُريحُ بمحسورٍ من الصَّوتِ لاغِبِ (٥
فسلَّمتُ والتسليمُ ليس يَسُرُّها ... ولكنَّهُ حقٌّ على كلِّ جانبِ (٦
فردَّت سلاماً كارهاً ثمَّ اعرضت ... كما انحاشتِ الافعى مخافةَ ضاربِ (٧
فقلتُ لها لا تفعلي ذا براكبٍ ... اتاكِ مُصيبٍ ما أصابَ فذاهبِ (٨
فلمَّا تنازعنا الحديثَ سألتُها ... مَنِ الحيُّ قالت معشرٌ من مُحاربِ

١) العُذَيب نهر في جهات الكوفة وراسب موضع قريب منهُ. ويروى: لَمُخبِرُكَ الانباء

٢) تقنَّع تلفَّف بالثوب. الطلُّ المطر الخفيف والندى. والطرمساء الليلة المظلمة

٣) الحيزبون العجوز المسنّة. وتلفَّعهُ التحفهُ

٤) تصلَّى البردَ قاسى شدَّتهُ. ويروى: برد العشاء. ويروى ذات العشاء

٥) بغامُ المطيَّة صوت الابل وحنينُها. وتُريح بمحسور اي تُخرج نفسَها الضعيف. واللاغب المُعيي ٦) الجانب الغريب ٧) انحاشت تقبَّضت. ويروى: انحازت

٨) مُصيب ما اصاب اي يكتفي بما يصيبهُ من الضيافة

من المُشترين القِدَّ ممّا تراهمُ جياعاً وريفُ الناس ليس بناضبِ (١

فلمّا بدا حِرمانُها الضيفَ لم يكن عليَّ مناخُ السُّوء ضربةَ لازبِ (٢

ألا انّما نيرانُ قيسٍ اذا اشتَوَوْا لطارق ليلٍ مثلُ نارا لحُباحبِ (٣

ولهُ في الحماسة قولهُ (حماسة ابي تمّام ص ١٧٠) :

مَن تكُنِ الحضارةُ اعجبَتْهُ فايُّ رجالِ باديةٍ ترانا (٤

ومَنْ ربطَ الجحاشَ فانَّ فينا قَناً سُلُباً وأفراساً حِسانا (٥

وكُنَّ اذا أغرْنَ على جنابٍ وأعوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيث كانا

أغرْنَ من الضِباب على حُلولٍ وضَبَّةَ إنَّهُ مَنْ حانَ حانا (٦

وأحياناً على بَكْرٍ اخينا اذا ما لم نَجِدْ الّا اخانا (٧

واستحسن ابن قتيبة للقطامي قولهُ في التشبيب (من البسيط) :

وفي الخدورِ غَماماتٌ بَرَقْنَ لنا حتى تصيَّدْنَنا من كلّ مُصطادِ (٨

---

١) اشتواهُ اتّخذهُ شواءً. وانقد الماء من جلد. وريفُ الناس ارضُهُمْ المخصبة. والناضب الناشز. اي انَّ الذي نزل عندك نالهُ البرد والجوع وهو ضيف لناس مخصبين

٢) اي لم اجد في ضيافتها امرًا موجباً لابقى عندها مع حرمانها فولّيتُ ذاهباً

٣) يريد انَّ نارهم لا يَصطلي بها ضيف يأتيهم ليلاً في كنار الحباحب اي الدويبة المعروفة بسراج الليل ٤) يقول انّنا ولو كنّا من اهل البادية فلسنا دون اهل الحضر

٥) يقول انَّ غيرنا يَربطون الحُمُر لاشغالهم وامّا نحن فنُعِزّهُ لنا الرماح السُلُب اي الطويلة او السالبة للنفوس والخيل المسوَّمة اي المرعيّة او المُعلمة

٦) يقول هذه الخيل واربابها اذا حملَتْ على جنابٍ اي ناحيةٍ واحتاجت الى غنائم في اي مكان وجدَتها تُغير على الاباعد من العرب كقبائل الضباب وهي اربعة ضِبَّة وضُبَيب وحِسل وحُسَيل. والحُلول الحيّ الذين يحلّون في محلّ واحد. وحان اتى وقتُهُ

٧) بكر قبيلة شقيقة لتغلب. يقول اذا لم يجدوا مطلوبهم عند الاباعد عطفوا على الاقارب ولو كانوا اخوانهم ٨) الغمامة السحابة كنّى بها عن المحصَّنات بالخدور

يقتُلْنَنا بحديثٍ ليس يعلمُهُ مَنْ يتّقينَ ولا مكنونُهُ بادِ
فهنَّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ بهِ مَواقِعَ الماء من ذي الغُلّةِ الصادي

هذه طرفة من ديوان القطامي نُضيف اليها بعض المقاطيع لم نجدها في الديوان. فمن ذلك ما رواهُ ابن سلّام في طبقات الشعراء (ص١٢٢) يمدح بهِ اسماء بن خارجة وهي تروى لغيرهِ فقال (من الوافر) :

اذا ماتَ ابنُ خارجةَ بن حِصنٍ فلا مَطَرَتْ على الارض السَّماءُ
ولا رجع البريدُ بغُنْمِ خيرٍ ولا حملَتْ على الطُّهْر النساءُ

وروى لهُ في الحماسة البصريّة (نسخة مكتبتنا الشرقيّة ١ : ٢٠) قولَهُ يذكر يوم ذي قار الذي غاب فيهِ العرب جيوش كسرى قال (من الطويل) :

وانْ نوى الداعي بسَيْبانَ (١) زعزعَتْ رماحٌ وجاشت من جوانبها القِدْرُ
همُ يومَ ذي قارٍ اناخوا فجالَدوا كتائبَ كسرى بعد ما وَقَدَ الجمْرُ

وروى ايضاً في الحماسة البصريّة (ص١٣٠) قولهُ يمدح بني دارم (من الطويل) :

جزى اللهُ خيرًا والجزاءُ بكفّهِ بني دارمٍ عن كلّ جانٍ وغارمِ
همُ حملوا رَحْلِي وأدّوْا أمانتي اليَّ وردُّوا في رِيشَ القوادِمِ
ولا عيبَ فيهم غير أنّ قدورَهم على المال امثالَ السنين الحواطمِ
وأنّ مَواريثَ الأُولى يَرِثونهم كنوزُ المعالي لا كنوزُ الدراهمِ
ومـا ضرَّ منسوبًا ابوهُ وامُّهُ الى دارمٍ أن لا يكون لهاشمِ

ومن حكمهِ قولهُ في فضل الاكتساب باليأس على الطمع . (الحماسة البصريّة ٢ : ٨) (من الطويل) :

---

١) سيبان جبل ما وراء وادي القرى (ياقوت ٣ : ٢٠٨)

أرى البأسَ أدنى للرَّشاد وانّما دَنا الغيُّ للانسان من حيثُ يطمعُ
فدَعْ اكثرَ الأطماع عنك فانَّها تضرُّ وانَّ البأسَ لا زالَ ينفعُ

وفي الحماسة البصريّة ايضاً (٢ : ٢١٦) بيتان من قصيدته المذكورة في ديوانه (تحت العدد XXI ص ٦١) التي اوّلها (من الوافر) :

من يكُ ارعاهُ الحِمى أخَواتُهُ فما لي من اختٍ عوانٍ ولا بِكرِ

امّا البيتان ففي وصف الناقة لم يُرويا هناك وهما :

اذا بركَتْ خرَّتْ على ثَفِناتِها مجافيةً صُلباً كقَنطرةِ الجِسرِ
كأنَّ يَدَيْها حين تجري ضُفورُها طريدانِ والرِجْلان طالبَتا وِتْرِ

(لها بقيّة)

فقيد العلم

السيد ادي شير مطران سعرت الطيب الذكر

بقلم حضرة القس سليمان صائغ الموصلي الكلداني

غني عن البيان ما احدثتهُ الحرب الكبرى من الفواجع والخسائر الفادحة . ومن اشدّها وانكاها فقدانُ رجال العلم والفنون الذين عانوا مشاقّ الدرس والابحاث الطويلة وعالجوا الكتابة والتأليف وقد حصدهم منجل تلك الحرب الشعواء قبل ان يستكملوا ابحاثهم ويتحفوا العالم بنتيجة مساعيهم وقبل ان يجتني العلم منهم تلك الثمرة المستطابة التي كان يترقبها بفارغ الصبر .

قد يجد الوطنيُّ مجال الاسف ضعيفاً على الذين خدموا مبدأهم واستعذبوا

المنايا في سبيل الذب عن الوطن العزيز فذهبوا ضحية تلك العاطفة النبيلة « الموت في سبيل الوطن » فكم منهم قضوا وعلى افواههم ابتسامة الظفر وعلى محياهم تسطع غرّة الشرف. ألا اننا نجد للاسف مجالاً رحباً على رجال من اهل العلم وخدمته الصادقين قضوا لا في ساحة الحرب حيث تُرادف للموت كلمةُ الشرف الاسنى. قضوا ولكن تحت طعنات الغدر غنيمة باردة اغتنمها الظلم وضحّاها على مذبح الأحقاد والبغضاء. ومن اجل هذه الضحايا واعظم هذه الخسائر على اهل العلم وخاصّة على الطائفة الكلدانية ابان تلك الحرب الضروس فقدان احد احبار هذه الطائفة الاجلاء الطيب الذكر السيد أدّي شِير مطران سعرت ونواحيها.

حياتهُ

ولد هذا الحبر العلامة في «شقلاوا» احدى قرى متصرّفية كركوك (ابرشية كرخ سلوخ) في اليوم الثالث من شهر اذار سنة ١٨٦٧ ودُعي في المعموديّة صليبا ابرهينا ونشأ على مبادئ التقوى والفضيلة. وقد توسّم فيه مهذّبوهُ اخلاقاً مثلى وذكاء فطرياً فزوّدوهُ بشهادة الحال وارسلوهُ الى مدرسة مار يوحنا الحبيب الكهنوتية للاباء الدومنيكيين في الموصل سنة ١٨٨٠ وهناك قضى مدّة الدراسة. وقد اظهر في اثنائها سعياً ونشاطاً حيادُ الى معلّميه وبرّز في العلوم واللغات وامتاز خاصّةً بالدروس الفلسفية والتاريخية وأتقن من اللغات الكلدانية واللاتينية والعربية والفرنسية والتركية تكلماً وكتابةً.

انقضت تسع سنوات الدراسة ونال الشهادة فأُسيم كاهناً من يد مار ايليا الثاني عشر عبواليونان بطريرك الكلدان في اليوم الخامس عشر من شهر آب سنة ١٨٨٩ مع سبعة كهنة آخرين كان بعضهم تخرّج في مدرسة الكلدان الطائفيّة والبعض الآخر في مدرسة المرسلين الدومنيكان ودُعي المترجم يومئذٍ باسم ادّي رسول الكلدان. ثمّ عُهد اليه بخدمة النفوس في ابرشية كركوك بصفة نائب اسقفي. فقام بخدمته احسن قيام وكان يقضي سحابة نهاره في المدارس وخدمة الشعب ويكبّ في ليله على المطالعة والدرس. فتعلّم اللغة العبرانية واليونانية والفارسية والكردية واخذ يفهم الالمانية والانكليزية ليقف على ما يكتبه عامّة المستشرقين الاوروبيين. وقد

قدّر اولياء الامور اتعابهُ وخاصّة فضيلتهُ الحقيقيـة وتقواهُ الصميميّ فـاختاروهُ للاسقفية في ١٥ آب ١٩٠٢ واسامه مطراناً على سعرت غبطة مار يوسف عمانوئيـل توما بطريرك الكلدان الكلي الطوبي في كاتدرانية الموصل في ٣٠ ت ٢ سنة ١٩٠٢ وسُقف معهُ السيدان اسطفان جبري رئيس اساقفة على صوبا (نصيبين) شرفاً والسيد يعقوب اوجين منّا نائباً بطريركيّاً

اعماله وتآليفهُ

قضى السيد ادّي بصفة كاهن مدة غير يسيرة يدبر ابرشية كركوك المترملة بوفاة راعيها المثلث الرحمة المطران جبرائيل ادّمو فصرف همته الى ترقية مدارس الابرشية وبذل مسعاه في تهذيب الاخلاق وبثّ روح الايمان وتحريـك عواطف التديّن فيما بين ابناء هذه الابرشية . فاسّس جمعيات او اخويات لطبقات الشعب من رجال ونساء تعميماً للفضيلة وترسيخاً للايمان في القلوب . وكان يثابر على الارشاد والتعليم فـأتت مساعيه باثمار جنيَّة عادت بالفوائد الجمَّة على ابناء تلك الابرشية . ولمَّا جلس على كرسي رؤساء اساقفة سعرت احبَّ ان يجري على مثال سلفهِ السيد عمانوئيل يوسف المختـار بطريركاً . وناهيك عن المساعي التي بذلهـا في تلك الابرشية فقـد قطع فيها شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والنجاح حتى ازهرت واثمرت ولكنّ الايادي المعادية امتـدَّت اليها فاخترمتها قبل النضج

اما اشتغاله في التأليف فيضيق بنا المجال ان نذكر ابحاثه الهامّة في مجلة المشرق الغرَّاء والمجلة الشرقيَّة الاسياوية وكان العلماء المستشرقون يقبلون على مطالعة ابحاثهِ ايّ اقبال ويقدّرون اراءهُ العلميَّة حقّ قدرهـا حتى احرز استحسان جميعهم فمُنح وساماً وخُوّل رتبةً في جمعية العلماء المستشرقين . وقـد خدم اللغة الكلدانية خدماً جليـلة فوضع كتباً لقراءة الاحداث على اساليب عصرية منها القطافة (ܩܛܝܦܬܐ) وهو كتاب ادبي ممتّع جمع فيهِ احسن ما جادت بهِ قرائح ادباء هذه اللغة . وألّف فيها ايضاً كتاب صلوات ضمّنه اخصّ عواطف الدين وحقائق الايمـان مع تأملات يومية . ثم اكليل مريم (ܟܠܝܠܐ ܕܫܘܒܚܐ ܕܒܬܘܠܬܐ ܩܕܝܫܬܐ) وقد جمع فيه شتات مدائح البتول للكتبة النساطرة الكلدان

ونقل ايضاً الى العربية كتاب شهداء المشرق في مجلدين ضخمين وذيّلهما بفوائد تاريخية جزيلة النفع وطبعهما في مطبعة الآباء الدومنيكان (١٩٠٠-١٩٠٦) وطبع جدول الكتب الكلدانية الخطية القديمة الباقية في الشرق في خزائن البطريركية والمطرانيات والكنائس(١) وغني عن البيان ما لاقاهُ في سبيل ذلك من اتعاب البحث والاسفار. وله كراسة استوفى فيها البحث عن مدرسة نصيبين وهي نبذة تاريخية لا يُستغنى عنها. ثم ألّف كتابهُ الشهير في تاريخ كلدو وآثور في ثلاث مجلدات تشتمل على ابحاث علمية وقد انتقد فيها اراء العلماء المستشرقين انتقاداً صحيحاً وطبع منها مجلدين الاول والثاني في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت (١٩١٢-١٩١٣) أمّا الثالث وهو اجزلها فائدة لابحاثه المستفاضة في تاريخ الطائفة الكلدانية في الازمنة الاخيرة

---

١) دونك اسماء هذه الجداول :

1 Catalogue des Manuscrits Syriaques et Arabes conservés dans la Bibliothèque épiscopale de Séert (*Kurdistan*)

2 Catalogue des Mss Syriaques et Arabes de la Bibliothèque du Patriarcat Chaldéen de Mossoul (*Paris. Champion*, 1907)

3 Catalogue des Mss Syriaques et Arabes de la Bibl. de l'Archevêché Chaldéen de Diarbékir (*Journal Asiatique*. 1907², *pp*. 331 *et* 385)

4 Catalogue des Mss Syriaques et Arabes de la Bibl. de l'Evêché Chaldéen de Mardin (*Paris. Champion*, 1908)

ووصف ايضاً مخطوطات متحف بورجيا السريانيّة في رومية

5 Notice sur les Mss Syriaques du Musée Borgia, aujourd'hui à la Bibl. Vaticane (*J. A*. 1909¹, 249)

ولهُ في المجلّة الاسيويّة الفرنسويّة مقالات عن بعض العلماء الكلدان كداد يشوع قطرايا (Dadišo' Qaṭraya *J. A*, 1905², 103) ويوحنّان بر بنكايا (*J. A*. 1907². 161)

واعظم شأناً من ذلك تاريخ قديم عربيّ للكنيسة وضعهُ احد قدماء النساطرة

Histoire Nestorienne(*Chronique de Séert*), 2 Parties(*Patrologie Orientale. de Mgr Graffin*), 1907

ومما طبعهُ في المطبعة الكاثوليكية ايضاً كتابهُ في الالفاظ الفارسيّة الداخلة في العربيّة

التي لم يجمعها لحد اليوم تاريخ انتقادي فقد اغتالتهُ يد الظالم قبل ان يُقدّمهُ للطبع ولا نعلم ما جرى بهِ بعد قتل مؤلفه المأسوف عليه

وكان هذا الحبر العلامة قد ساح العواصم الاوروبية وزار المتاحف الكبيرة فاحتفى بهِ العلماء احتفاء دلّ على ما لهُ من المنزلة الرفيعة عندهم. ولمّا رجع الى سعرت مركز ابرشيته سعى بجمع مكتبة عظيمة حوت انفس الكتب من قديمة خطّية وحديثة مطبوعة وضمَّ اليها مكتبة دير مار يعقوب الحبيس (بجوار سعرت) وفيها جملة من الكتب القديمة الخطية. ومن انفسها تاريخ خطي مجهول اسم مؤلفه وقد نقل عنهُ كثيراً في تاريخ كلدو واثور حيث يسميه التاريخ السعردي. وقد زيّن هذه المكتبة باشهر الكتب العصرية التي ظهرت في اوروبا خاصة التاريخية منها ولا نعلم ما جرى بتلك المكتبة بعد تلك الحوادث السوداء. هل بقيت تلك المجلدات النفيسة محفوظة ام مزّقتها الخناجر المخضّبة بالدماء او التهمتها النيران. ولا ما جرى باوراقه ومجاميعه التي احيا الليالي ولاقى نصباً جمّاً من اجلها؟ هل بعثرتها الايادي ام ما زالت الى اليوم توقد في موقد القهوة لاحد الاغوات؟ اهذه ثمار مدنيتكِ ايها العصر الذهبي؟ اين الحقوق التي قمتَ تنشدها بمدافعك ورشاشاتك محلقاً في الفضاء وغائصاً في اعماق البحار؟

مقتله

كانت بقعة الجزيرة الخضراء قد اصبحت في سني الحرب الكونية حمراء قانئة من دماء المظلومين فكان السيف يحصد رؤوس المسيحيين بغير شفقة ولا رحمة خاصة سنة ١٩١٥ وفيها تنكبت ابرشية سعرت النكبة الهائلة بقتل ابنائها وراعيها المأسوف عليه السيد ادي شير. وهنا نضرب صفحاً عن ايراد تلك الفواجع المؤلمة التي قرّحت العيون وادمت القلوب. وقد رأينا بعيننا وسمعنا باذاننا ما تشيب لهوله رؤوس الاطفال فنقتضب ايراد تلك الويلات حذراً من ان نؤلم القراء الكرام ذوي الشواعر الرقيقة بمظالم يذوب لها الجماد. وحسبُنا ان نواصل البحث في نهاية حياة ذاك الحبر العلامة خادم العلم في ديارنا اجابةً لرغبة الكثيرين ممن عرفوه شخصياً او عرفوه بمؤلفاته وكتاباته ويرغبون في الاطلاع على شكل موته القاسي. لا اعلم أطُرق قبلي آخر هذا الموضوع او ان كان قد طرقه هل توصّل الى الحقيقة. امّا انا فبعد التحقيق من الذين

افلتوا من السيف اهتديتُ الى احد ابناء هذه الابرشية «داود بن هرمز» . ووثقتُ من صدق مخبره لانهُ كان مرافقاً للمطران الى ما قبل مقتله بايام قليلة وهذا مما رواه :

كانت الصدور موغرة علينا والخناجر عطشى الى ارتشاف دمنــا والعيون غضبى تنظر الينا شزرًا فكأن السما. قـد اصبحت فوقنا نحاساً والارض تحتنا هوَّة فارغة . فاصلتوا سيف الظالم على رؤوسنا واستباحوا دماءنا واجروها انهارًا في اسواق سعرت ونواحيها . قتلوا الرجال عن بكرة ابيهم ولم يفلت منهم الا عدد نزر . أمَّا النساء فهربن الى دار المطرانية ملهوفات وكان الراعي المسكين يستعطف المراجع العالية

يعرف الواقفون على حوادث الشرق الظالم التي اجراهــا رجال آل بَدْرخان في جبال الهكارية واطرافها وقد ذكر بعضها المستر لايارد الرحالة الانكليزي في كتابه اثار نينوى . وقد روى ذلك عن خُبْرٍ لا عن خَبَر اذ كان يومئذٍ يسيح في تلك الاصقاع ولم يزل نفوذ هذه العائلة ورجالها على نواحي سعرت الى زمن الحرب الكونية وكانوا قد امتنعوا من تجنيد رجال عشائرهم وانحــازوا عن موالاة الحكومة التركيــة الى مناصرة الجيوش الروسية المرابطة يومئذٍ على الحدود . فنقمت عليهم الحكومــة التركية وعزمت على قمع نفوذهم . وكان راعي ابرشية سعرت قد وثق عرى العلاقات منذ اول مطرانيته مع آل بــدرخان بك صوناً لحياة ابنــاء ابرشيته وكان اشدَّهم صداقة له كامل بك وعبد الرزاق بك اغا عشائرُ البوهتان واعظمها الباتويَّةُ القاطنون في قضاء أروه على مسافة ثلاثين كيلومترًا تقريباً عن مركز سعرت . وبتلك العلاقات قدر الراعي الحكيم ان يحافظ على حيــاة الالوف من المسيحيين القرويين ومعظمهم كانوا يرزحون تحت نير عبودية المتنفذين

ادَّعى اولياء الامور بانهم اطَّلعوا على مكاتبة جارية بين راعي الابرشية وبين رجال آل بدرخان بك ونسبوا اليه الخيانة ظلماً فاستجازوا دمه ودماء ابناء رعيَّته ومثَّلوا بهم ذاك التمثيل المريع ولم يكن ذلك الا سبباً منتحلًا . فان المطران كان قد قطع علاقاته مع آل بدرخان بك لظهورهم بالعصيان على الحكومة ولم يكاتبهم الَّا حينما كانت تزين صدورهم اوسمة الـدولة وتنهال عليهم رواتب الحكومة . فمتى شتم الحَمَلُ الذئب ؟

كانت اواخر شهر ايار سنة ١٩١٥ آخر عهد لتلك الابرشية النبيـلة فقد أرهف

السيف وصمّت الاذانَ اصواتُ البنادق في اسواق وشوارع سعرت فجرت دماء المسيحيين فرغاً . ولو القيتَ نظرةً على دار المطرانية لهالك الامر مما تراه من صراخ الاطفال وعويل النساء والمطران حائر بائر قد اوصد باب داره واقام يعزّي النساء ويهدّئ جزع الاولاد بينما كان المتصرّف مع بعض الشرطة يقرعون بابهُ ويطلبونه بالحاح . فلمّا حضر امّنه المتصرف واكّد لهُ ورود الاوامر المشدّدة من الباب العالي باطفاء نيران الفتنة وأقنعه بالمسير معه قاطاعهُ وسار الى دار الحكومة وهناك اجرى المتصرف التحقيقات عن علاقته مع آل بدرخان بك فأكد لهُ المطران ان لا علاقة له بهم سوى ما كان قبل ظهورهم بالعصيان وتلك كانت وسيلة لحفظ ابناء رعيته . ثم اطلقه المتصرف مرافقاً ببعض رجال الشرطة غير انه امام دار الحكومة أطلق عليه الرصاص فاصابت الطلقة خادمه فخرَّ صريعاً يتخبَّط بدمه . اما المطران فحجزوا عليه في دار المطرانية

كانت القوات الروسية ثمة مخيّمة قريباً من سعرت على بُعد بضع ساعات وكانت اصوات مدافعهم ترعد في تلك الاصقاع وتحيي ميّت الامال . وكانت الاخبار قد بلغت آل بدرخان بك وبلغهم ايضاً الاخطار التي تتهدد حياة المطران فانفذ كامل بك رسولًا الى عثمان آغا على عشيرة الشروان القاطنين في قرى «طانزي» يطلب منهُ ان يسعى في انقاذ حياة المطران ويطمعه بالمواعيد والمطايا . فارسل عثمان آغا اخاه محموداً مع عشرة رجال اكراد شاكي السلاح واثنين من المسيحيين من اهالي قرية حديد . وكان ذلك اليوم وهو السبت يوماً عصيباً زهقت فيه الارواح وأريقت الدماء (١) ولم تهدأ هذه المذبحة المريعة الّا بعد حلول الظلام حين بلغ رجال عثمان اغا الى دار المطرانية . فنقبوا الجدار واخرجوا المطران متزيياً بزي كردي وساروا به قليلًا عن سعرت ثم شعر به رجال الشرطة فاقتفوا اثرهم وناوشوهم القتال فقابلهم بعض رجال عثمان اغا وهربَ البقية بالمطران وقد حمله احدهم لابطائهِ في السير من تأثير الحزن والتعب

سارت هذه القافلة الصغيرة تحت جنح الظلام سيراً خبباً حتى بلغوا «عقبة» مضيق

---

١) وللحضرة القس اسحاق ارملة فصل حسن مؤثر في مذبحة سعرت في كتابهِ القصارى في نكبات النصارى (ص ٣٨٦-٣٩٠)

بين جبال جرداء تتلوى امامهُ مياه نهر بوهتان. وهناك وجدوا قارباً فركبوه واجتازوا به النهر وجدّوا بالسير حتى بلغوا طانزي الواقعة بين سعرت والجزيرة (جزيرة ابن عمر). فاحسن عثمان اغا استقبال المطران وهدّأ روعه. الّا ان متصرف سعرت ابرق الى متصرف الجزيرة يخبره بهرب المطران الى طانزي ويستحثهُ على ارسال سريّة من الجند في طلبه. وكان عثمان اغا قد احسّ بالمكيدة وعرف بالخطر الذي يتهدد ضيفه فارسلهُ الى جبل يشرف على قرية «عينا» وهي تبعد عن سعرت نحو ست ساعات او اكثر. فاقام المطران مع خادمَيه المسيحيين في احد كهوف الجبل مدة خمسة عشر يوماً حتى اقبلت الجنود من الجزيرة. وكان عثمان اغا قد انفذ الى صديقه الحميم رسول اغا (احد اغوات بوهتان) يدعوه الى الاخذ بناصره في دفع الجند عن المسيحيين الملتجئين الى قراهما. فابى ذلك اجابة طلبه. وكان الجند قد بلغوا قرية ديراوات المحاذية لقرى طانزي وارسل القائد الى عثمان اغا يتهدّده ويأمره بتسليم المطران فانكر عثمان اغا ذلك. فتقدمت الجنود الى قريته وكان هو قد نجا بنفسه وذويه فنهبوها واحرقوها ثم حملوا على المسيحيين واعملوا فيهم السيف ولم يفلت منهم الّا عدد قليل. ومن اشهر القرى العديدة المسيحية التي خربت واقوت صدخ (٤٠٠ نسمة) وقطمس (٦٠٠ ن) ودير مار كوريا (٥٠٠ ن) وتالّا مشاري (٦٠٠ ن) وحديد (٣٠٠ ن) وكديانس (٢٠٠ ن) وبينكوف (١٥٠ ن) ودير شمش (١٣٠ ن). (هنا تنتهي اخبار داود بن هرمز فانه هرب بنفسه من الجبل وبقية الحادثة نقلناها عن ثقات)

مضت خمسة عشر يوماً على الحبر العلامة مختفياً في كهفه يفترش التراب ويتوسّد الصخر. وصباح اليوم السادس عشر بينما كان خادمه خرج ليطلب الماء رأى احد اكراد السريّة يحصد حشيشاً للخيل فتعارفا وسألهُ الكردي عن مقام المطران فاعلمهُ الخادم وسار به اليه. وكان الخادم قد اضمر في قلبه على قتل الكردي حذراً من افشاء امرهم الّا ان المطران زجره وامره بتركه يذهب لشأنه. ولم يمض دقائق معدودة حتى اقبلت تلك السرية الكردية فقتلوا الخادمين ونزلوا بالمطران مغلول اليدين الى قرية عينا حيث كان مقيماً القائد التركي مع بعض رجاله. فلم يمهلوه ان يستريح بل ساروا به للحال بعيداً عن القرية قليلاً بين البساتين ثم وقفوا به امام كهف جسيم يتدفق من احدى زواياه ماء زلال. وهناك تنمّرت وجوههم وبدت عليها امائر الغضب

والشر . وقد لمح المطران منهم ذلك وخاطبهم بالكردية واستمهلهم ريثما يصلّي (١ وقبل ان يفرغ من صلاته اطلق عليه اولئك الظلمة نيران بنادقهم فخرّ صريعاً امام ذلك الكهف . فجمعوا فوقه حجارة جرياً على عادتهم لتكون تلك القائمة دليلاً على ان تحتها دفيناً قتيلاً . هذه كانت آخرة ذلك العلامة والحبر النبيل الذي خدم العلم خدماً جليلة يقدّرها له التاريخ على ممر الايام . قضى بين جلبات اولئك الجهنميين ووارت جثمانه ايديهم الاثيمة وما زال الى اليوم مسجّى تحت ظل اشجار الزيتون وسط سكون عميق لا يكدره الا نوح الحمائم وزفرات النسيم فتهتز الاوراق المتبلّلة بندى الصباح وتنفض ما عليها من قطرات فضية فوق قبر الشهيد

البعثة البابوية الى البلاد السوفياتيّة

لحضرة الاب جان كابلو اليسوعي

كلّ يعرف ما حلّ بالبلاد الروسيّة من البلايا والكوارث المؤلمة منذ ضبط فيها أزمّة الحكم حزب السوفيات ومشايعيهم من الجيش الاحمر فذهبت باعمار الوف بل الوف الالوف من اهل تلك الدولة الواسعة الارجاء ذات الحول والطّول

وقد زادت هذه الرزايا بما اصاب تلك البلاد في السنة ١٩٢١ من المحل والجدب بانحباس الامطار عنها مدّة ستة اشهر فمات الزرع وهلك الضرع في عدة مقاطعات كوادي ڤولغا وجبال اورال القديم واوكرانية فبسطت المجاعة اطنابها على رؤوس اكثر من ٣٠ مليوناً من الاهلين واذا بصراخ البائسين دوت له مسامع الدنيا واقشعرّت الابدان لما كان الموت يحصده كلّ يوم من الوف البشر فاخذت الدول

١) قال القس اسحاق (ص ٣٨٩) « فجثا وصلّى ثم لبس ثوبهُ وتقلّد صليبهُ وركع وقال : لكم الحرّية أن تفعلوا ما يعجبكم . فأوغلوا في تعذيبهِ وفتكوا بهِ وعادوا بامتعتهِ الى علي والقاضي غير انّ الله جلت احكامهُ انتقم للحال من علي المزبور ومن ابنهِ ايضاً فقتل كلاهما شرّ قتلة

تسعى لاستدراك هذه الآفات المجحفة وكان السابقون في هذه الخلّة الشريفة قوماً من الاميركيين فألّفوا لجنة من ١٥٠ شخصاً ثم جمعوا في الولايات المتّحدة ٧٠ مليوناً من الدولارات وتقاطروا الى مساعدة اولئك المنكوبين فاتوا بمائة وخمسين مركباً موسوقاً بالاقوات المختلفة وألّفوا جماعات من اهل البلاد لا يقلّ عددهم عن ٨٠ الفاً لتوزيع تلك الحسنات فامكنهم ان ينقذوا من مخالب الموت نيّفاً وعشرة ملايين من اهل روسيّة صغاراً وكباراً. وكان مدير تلك الاعمال الجبّاريّة رجلاً كاثوليكياً عريقاً في دينه وهو الكولونل هسكل (C^{ol} Haskell)

ثم حثت بالاميركان بعثة «الاتحاد الدولي لإنقاذ الاولاد» تحت مراقبة الدكتور نانسن (D^{r} Nansen). ثم جماعات الصليب الاحمر الدوليّة فانتشرت هذه الشركات في انحاء روسيّة وأقاتوا مليوناً و ٢٢ الفاً من الضائرين

ولم يشأ الحبر الاعظم بندكتوس الخامس عشر ان تغيب الكنيسة الكاثوليكية عن مثل هذا السباق الشريف. ومنذ الشهر آب من السنة ١٩٢١ اخذ يفكر في الوسائل الناجعة لمزاج هؤلاء البؤساء. الّا انّ الموت عاجلهُ دون اتمامه لهذه النيّة الجليلة فاراد خلفهُ البابا بيوس الحادي عشر ان يحققها منذ اوائل يوم جلوسهِ المأنوس على كرسي ائمّة الاحبار فراجع اولياء الامر في روسيّة ونال بعد اللتيا والتي جواباً مطابقاً لرغبتهِ في ارسال وفد خصوصيّ الى تلك البلاد مع المساعدات الكافية لبضعة الوف من المتضوّرين فألّف لذلك لجنةً من احد عشر راهباً من اربع رهبانيات كان منهم ثلثة يسوعيين تحت نظارة كاتب هذه الاسطر وكان السوفيّات امّنوا سبيلنا بجوازات سفر وتذاكر ارسلوها الينا. فابحرنا من مينا باري في ٢٦ تموز راكبين الباخرة «غاليسيا» من شركة «لويد ترياستين» وكانت وجهتنا الى البحر الاسود وطريقنا على الاستانة حيث قضينا يومين وفي ٤ آب بلغنا اودسّا

اودسّا

وجدنا مينا المدينة خالياً وانّما كان في حوضهِ الشمالي مركب اميركي من جمعيّة الحسنات الى روسيّة (ARA) كان عند وصولنا يفرّغ خمسة آلاف طن من الطحين لقوت الجائعين وكان ايضاً بازائنا طرّاد موسوم بالعدد «٢١٧» اتى برفقة

المركب المذكور صيانة لرعاياه. وأرست باخرتنا بين السفينتين

وما كادت تثبت في مكانها على مسافة عشرة امتار من البرّ حتى احاط بنا عدد عديد من عمّال السوفيات تسترهم القمصان وهم مشمّرو السواعد متأبطون قماطير دفاترٍ تؤذن بوظائفهم وكلّهم من الفلمان الشبـاب لا يبلغ سنّ اكبرهم عمرًا ثلاثين سنةً. وكان حولهم أخلاط من غوغـاء الشعب أتوا ليعـاينونا وكان الجنود يتولّون حراستهم

وبعد هنيهة صعد العمّال الى ظهر باخرتنا وطلبوا تذاكرنا فصدّقوا عليها وطلبوا ان يماينوا كلّ امتعة الركّاب وان يدلُّوهم على ما يحملونهُ من الدراهم. أمّا نحن فلم نرضَ بكِلا الامرين لمجيئنا رسميًا برضى دولتي السوفيات والكنيسة الرومانيَّة لعمل خيري فضربوا عنّا صفحاً. لكنهم دقّقوا في تفتيش امتعة كل المسافرين بحرص عجيب. وامروهم قبل نزولهم الى البرّ ان يدَعوا عند ربّان المركب دراهمهم والغاية من هذا الامر ان لا يبتاعوا شيئاً من اهل البلد بل يلتجئوا الى البولشفيك وحدهم في بيعهم وشرائهم لتبقى النقود في حوزتهم فقط

ثمَّ طلبنا منهم ان يسمحوا لنا بجوازاتٍ لننزل فنزور المدينة فوعدونا بها الى الغد لكنَّهم لم يقوموا بوعدهم حتى اليوم الثالث واذ صرَّحنا لهم بكدرنا لسوء هـذه المعاملة ونحن آتون لخير بلادهم فاعطوا الجوازات لاصغر الركّاب دوننـا. فلمّا كان اليوم الرابع بلّغونا بسماحهم لنا بالنزول الى المدينة على زورقٍ اتوا بهِ. فسئم البعض منّا من هذا التأخير ولم يشاؤوا النزول. فنزل الباقون فاخذونا الى ديوان المدينة حيث اعطونا الجواز لزيارة البلد. وقد تأكدنا انهم لم يسمحوا باختلاطنـا مع اهل البلد قبـل ان يراجعوا رؤساءهم في موسكو وذلك كان السبب لتأجيلنا. فرجعنا الى المركب بعد ساعتين ودعونا كبار الموظفين الى وليمة على المركب لنبدي لهم شكرنا عن لطفهم ولو متأخرًا ونكسب بذلك ثقتهم ونتقرّب اليهم

وقد استفدنا من هـذه الاجازات اذ بلغنا انَّ باخرتنـا التي تُقلّنـا الى القِرِم موعد شغلنا لن تُبحر الى سيبستوبول الّا بعد ستة أيام لسبب اعتصاب البحريين: فانتهزنا هذه الفرصة لنتفقّد احوال البلد ونعاين مصائب سكّانهِ. فكان اوّل مـا حاولنا زيارةُ الكنيسة الكاثوليكيّة لنسجد فيها لذلك الذي رحم المساكين وتحنّن

على الجوع (مرقس ٨ : ٢) ونخصص لهُ خدمتنا ونستمطر نعمهُ على البائسين الذين اتينا لتخفيف آلامهم . فسرنا في شوارعَ على جانبيها الاخربة والجدران المتداعية وقد استولى الدمار على منازلها ومطاعمها ومعاهدها العموميَّة سواء اصيبت بقذائف الاعداء ام أخربها اهل الثورة اواقتلع الفقراء اخشابها ليصطلوا بنارها . وقد اصبحت تلك الامكنة اطلالاً ومزابل

كنيسة اودسَّا الكاثوليكيَّة ذات هندسة بسيطة على خلاف الكنائس الروسيَّة التي تستوقف الابصار بقُبَبها البديعة وحليّها الرائعة . فبعد الزيارة لاله القربان طلبنا من الحاجب أن يقودنا الى منزل خادم الكنيسة فرافقنا الى غرفةٍ وجدنا فيها راهباً كابوشيّاً يُدعى فرنشسكو . فلمَّا رآنا وعاين زيَّنا الغريب اخذه الدَّهش وسألنا متلعثماً كأنهُ رأى في إثرهِ شُرَطَ البولشفيك : من أنتم وماذا تريدون ؟ فقلنا لهُ : نحن يسوعيُّون ومعنا بعض رهبان ارسلنا الحبر الاعظم لإقاتة المنكوبين من الروسيين . فشدَّ ما كان انذهالهُ لهذا الخبر وهو في بلاد البولشفيك منقطع عن كل ما يجري في العالم . فسألناهُ أليس هو خادم رعيَّة اودسَّا فانكر وخاف لئَلّا نكون من جواسيس البولشفيك فلمَّا تحقَّق امرنا قال : او لا تعلمون ما حلَّ بالكاهن المذكور ؟ قلنا : لا . قال : أتانا يوم امس بعد المغرب ثلثة من المأمورين فقرعوا باب غرفتي فلمَّا فتحتها طلبوا ان ادلَّهم على غرفة خادم الكاثوليك ونائبهِ فلمَّا اشرتُ اليها اعادوني الى مكاني واقام واحد منهم يراقبني وبعد هنيهة قادوا الكاهنين الى حبس الدائرة البولشفيَّة (Tchéka) وقد وجدت غرفتيها مبعثرتين منهوبتين ولم نعلم سبب توقيفهما واليوم اصبح الناس اوكلُّهم في روع وهلع . امَّا نحن وكنَّا سمعنا عن حبس تلك الدائرة وما يجري فيهِ من الفظائع ففكرنا في ما ينتظرنا نحن ايضاً وقد صرنا في حوزة هؤلاء الهمج

ثمَّ ودَّعَنا الاب فرنشسكو وذهب ليعود احد المرضى فسلَّمنا عليهِ ووعدناهُ بالرجوع اليهِ في الغد . ثم اخذنا نتجوَّل في احياء البلد . فكان منظر مدينة اوديسَّا واهلها يفتّت القلب

فكان يخال لنا أنَّنا نسير في مقبرة لا في مدينة عامرة فكان الذين نلقاهم في طريقنا يلوحون لنا شاحبي اللون منهكي القوى ضئيلي الابدان كأنَّ الجوع قد

اضناهم واءتص لحانهم فلم يدع لهم غير الجلد على العظام وعيونهم غائرة في حجاجها. فكنّا نتساءل أهؤلاء بشر احياء ام بالحري اشباح أموات. وقلّما كنّا نجد شيوخاً او كهولاً فلاشكّ انّ الحرب ومذابح البولشفيك والمجاعة قد اكتسحت عددهم الاوفر فلم يبقَ الّا الشبّان الذين احتفظت عليهم الدولة الجديدة ليقوموا باعمالها ويجروا على سُننها. وكنّا في معاملاتنا مع ارباب الدولة لا نكاد نجتمع مع غير الشبّان او الفتيان في مقتبل العمر

وكنّا نرى الازقّة والشوا الاوساخ فيلقي فيها الناس زبلهم وليس هناك عمّال ليقوموا بتنظيفها تلك الروائح الكريهة نافرين منها. امّا اهل البلد فكانوا يسيرو لتلك الحالة السيئة يغلب عليهم الهمّ والغمّ فينتظرون الموت المصائب المحيقة بهم

وقد وقفنا على قائمة مور ـه في ساحات اودسّا في شهر حزيران. فاذا هو ١٣٥ في ٣ حزيران ثم ٨٥. في ٤ منه ثم ١٤٥ في ٥ منه وهلم جرّاً. ثم اطلعنا على جداول اخرى في جهات روسيّة فاذا كلّها ترتعد لذكرها الفرائص. فمن ذلك انّ ١٨٠,٠٠٠ ماتوا جوعاً في مدّة ستة اسابيع في اوكرانية ووادي ڤولغا. وبلغ هذا العدد مدّة ثلث سنوات ستّة ملايين فكادت تلك الانحاء تتحوّل الى مقابر مقفرة

*

وكنّا اذا عدنا الى باخرتنا في ساعة غدائنا نرى القوم ولاسيما الاولاد يتزاحمون على الرصيف فيصرخون بالروسيّة: عماه قطعة من الخبز! فيتهافتون على ما نلقي لهم من بقايا طعامنا. وكانت قلوبنا تكاد تتفطّر وجعاً اذ نرى النساء واطفالهنّ على الذراع وفي يدهنّ اناء ينتظرن ان يودَعَ فيه شيء من الطعام لقوت صغارهنّ فينظرن اليك صامتات جامدات وعلى وجوههنّ كلّ إمارات الالم. فكنّا نسرع الى إغاثتهنّ فتدلّ دموعهنّ على شكرهنّ لنا

وكنّا احياناً نختلط بهؤلاء المساكين فنلقي عليهنّ بعض السؤالات لنطّلع على حقيقة امورهم. ما اسمك يا ولدي؟ — اسمي ڤالوديا (مصغّر ڤلاديمير) — هل ابوك حيّ؟ — كلّا. مات من الجوع في الشتاء الاخير — وأمّك؟ — هي في البيت مريضة بالتيفوس — وهل لك اخوة واخوات؟ — ماتوا كلّهم من الجوع فبقيتُ وحدي

وانت يا بُني ما اسمك ؟ — سرجيوس — وهل ابوك وأمك بخير ؟ — كلا قُتل ابي في الحرب وماتت امي بالتيفوس في الشتاء — واخوتك ؟ — انا وحدي يتيم وغريب . هربت من ضيعتي لأجد في المدينة أكلا — وما لك لا تذهب الى جماعة الاميركان ليعطوك معاشاً ؟ — انا عمري ١٥ سنة وهم لا يقبلون احداً فوق سنّ ١٤ . وها قد مرّ عليّ يومان لم أذُق طعاماً — فضمنتُ لهُ طعامهُ في أيام اقامتنا في مرفإ اودسّا .

وكان بين هؤلاء الصعاليك فتى يجرح نظرهُ قلبنا . كان لابساً قطعاً من أطمار قميص وَسِخ لا يكاد يستر جسمهُ فكان يسير ذهاباً واياباً على الرصيف لعلّهُ يجد شيئاً يؤكل كفتات من الخبز او رأس سمكة او حُثامة ما نجت من نهم الكلاب . وكانت الشمس قد غربت فقلتُ لهُ : ماذا تصنع هنا يا بُني قد قرب الليل اذهب الى بيتك — فنظر اليَّ بعينين تترقرق منهما الدموع فقال : عمّاهُ حتى الآن ما اكلتُ شيئاً — وما لك لم تأتِ الى المركب فكنّا اعطيناك طعامك ؟ — كنت أُريد ان اطلبهُ لكنّ الحرّس كانوا يطردونني . ولمّا كان يُلقى اليَّ من المركب شيء يؤكل كان غيري يلتقفهُ فيأكلهُ . كان يقول هذا والحُمّى تنفض كلّ بدنهُ وكان بطنهُ متنفخاً فقلت لهُ : قد اكلت اشياء وتخمة . قال : وما العمل وانا اتضوّر جوعاً . فقلت لهُ : هلمّ معي الى المركب فأُعطيك طعاماً . ثمّ تأتي اليَّ كل صباح فانا أقوتك . وكانت آذاننا في كلّ مدّة اقامتنا هناك تصطكّ لسماع هؤلاء الصبيان صارخين : نحن جائعون ! نحن جائعون

وكان اذا احتدم الحرّ ونحن في فصل القيظ نرى الاولاد يركضون فئاتٍ الى شاطئ البحر ليستحمّوا فنُعاين ما صارت اليهِ ابدانُهم من السُهام والضعف . فنمتعض لهذا المنظر المؤلم الذي يمثّل لنا صورة الموتى

وليست المجاعة ضاربةً اطنابها على الفقراء والمساكين فقط فانّ عمال السوفيات نفسهم يعيشون عيشة ضَنكة لا تقوى على سدّ عوزهم . فكنّا نرى حولنا وقت غدائنا عدداً من صغار العمّال (tchinovniks) ينتظرون على باب مخدعنا ليلتقطوا شيئاً من بقايا طعامنا . على انّ الدولة لا تبخل باوراقها الماليّة معهم فكلٌ منهم يصيب ملايين من الروبل ولكن ايُ قيمةٍ لتلك الاوراق ؟ فالملايين منها لا تكفي لابتياع مأكول بضعة ايّام . امّا العملة الذهبيّة فقد احتكرها ارباب الدولة لمنفعتهم وفائدة

اصحابهم . وقد قال لي رئيس مركب ضبطَ الفرنسويون مركبهُ في البوسفور انَّ راتبهُ يبلغ ١٤٠ مليوناً في الشهر الّا انَّ السوفيات لا يعطونهُ سوى ٢٥ مليوناً التي تساوي مئة فرنك فقط . فكيف العيشة مع هذا فان كانت هذه حالة رئيس مركب فما قولك بسواه

وفي ١٤ آب تمكَّن اخيرًا مركبنا من تفريغ بضائعه ووسق غيرها فسار بنا الى سيستوپول فلمَّا اقلع كنا نرى جماهير الشعب وخصوصاً الصغار يصرخون بصوت يثير الرحمة في القلوب : عمّاه عمّاه متى ترجعون ؟

٢ سيستوپول

هي المدينة التي انتشبت فيها تلك الحرب العوان بين دولة المسكوب والدول الثلث المتحالفة فرنسة وانكلترة وتركيَّة وانتهت بفتحها عواناً سنة ١٨٥٥ فاشتهر بالدفاع عنها البطل توتليبن ولا يزال لهُ هناك مشهد يخلّد ذكرهُ وذكر الاميرالين كورنيلوف وناخيموف

وليست سيستوپول مدينة قديمة فانَّ بانيتها هي الامبراطورة كاترينا احدثتها سنة ١٧٨٦ ودعتها باسم « المدينة الامبراطوريَّة » او « المدينة العظمى » واقامتها شرقيّ اخربة مدينة « خرسون » القديمة عند جونٍ تسطع في مرآة مياهه صورتها البهيَّة ويُحدق بها المشاجر فتلوح بمنظر فتَّان

وكان السوفيات عارفين بمجيئنا فأتوا ليدعونا الى نزل أعدّوهُ لنا فيه ثلث غرف لثلثةٍ منّا فلمّا وجدونا تسعةً احتاروا في امرهم وترجّونا ان نبقى في المركب ريثما يجهّزون ستّ غُرفٍ اخرى للباقين . وكان لا مَندحة لنا من النزول الى البرّ بعد يومين لانَّ باخرتنا «اللويد تريستين» لا تربط في سيستوبول اكثر من هذه المدَّة . ونحن موعودون بوصول باخرة روسيَّة تنقلنا بعد ثلثة ايام الى مدينة ثاودوسية غاية سفرنا الواقعة على مسافة عشر ساعات من سيستوپول . فعرضنا على ربَّان اللويد ان ينزل في ثاودوسية فأبى لِما يترتّب عليه من أداء الرسوم الجمركيَّة لمرفأ تلك المدينة وهي بالغة ١٢٠٠ ليرة ايطاليَّة ولا يؤمل ربحاً كبيرًا من تجارتها

فقُضي علينا ان نبقى في المركب ونستعدّ لنقل اثقالنا الى البرّ وهي لا تقلّ عن

٣٦ طرداً مختلفة الكبر والوزن لعلمنا بما نحتاج اليهِ في روسيَّة في الضيقات الحاضرة. فرجونا من رؤساء البلد ان يودعوها في ديوان المرفأ (الكمرك) ليسهل نقلها الى المركب المنتظر بعد ثلثة أيام فاجابوا الى طلبنا

وفي اثناء ذلك احببنا ان نلقي النظر على المدينة واحوالها في عهد السوفيات فقيل لنا ان بلاد القرْيم تؤلف جمهوريَّة صغيرة لها بعض الاستقلال في تدبير امورها وإن كانت مرتبطة بجمهوريَّة روسيَّة السوفياتيَّة العليا. فانَّ لها ادارة احوالها ولجنة تنفيذيَّة خاصَّة وتفويض تامٌ بتجارتها الخارجيَّة.

وكان اوَّل من اتى لاستقبالنا كاتب اسرار الادارة وهو لابس قميصاً شمَّر اردانهُ الى كتفهِ فدعاني مع راهب آخر لتركب اوتوموبيلاً ونذهب لزيارة مشهد تورتليبن ثمَّ نزل بقيَّة رفقتنا فاجتمعنا مساء في المنزل المعدّ لنا. وفكَّرنا في اعداد عشائنا وكنَّا هناك عشرة مع ترجمان كان يرافقنا. وبقي اثنان في المركب اذ كانت وجهة سفرهما الى مدينة يربط فيها مركبنا غير ثاودوسية

وما جلسنا للعشاء حتى اتانا احد العمَّال يخبرنا بأنَّهم قد اعدُّوا لنا عشر غرف نأوي اليها في مدَّة اقامتنا في سيبستوبول فدعوناهُ للعشاء. فعدَّ دعوتنا نعمةً ثمَّ قابلنا بالمعروف في معاملاتنا مع اصحابهِ السوفيات

وقد تعبنا كثيراً قبل ان نجد مأكلاً نظيفاً فانَّ اللحم مشبوه واطعمةً اخرى وخمة لا تؤكل فاكتفينا بما وجدناهُ من طبيخ الجزر والبطاطا المشويَّة مع فاكهة البلد اللذيذة كالتفَّاح والخوخ. وطلبنا شيئاً من الخمر فقدَّموا لنا زجاجة منهُ ثمنها مليونان من الروبل (ستَّة فرنكات) مع زجاجة من الليموناضة تساوي نصف مليون روبل (فرنكاً ونصف). فكان مصروفنا على عشائنا ٨٠ مليون روبل؛

ثم اردنا ان ندفع لصاحب المطعم حقَّهُ لكنَّنا لم نجد في يدنا شيئاً من اوراق الروس الماليَّة ففتَّشنا على صرَّاف واذ بيهودي هناك صرف لنا مئة دولار بمئة مليون روبل كلّها اوراق مختلفة القيمة تتراوح بين ٢٥ روبلاً و ٥٠ مليوناً فكانت محفظتنا تضيق عن احراز كلّ هذه العملة. لولا انَّ مصاريفنا اليوميَّة كانت تخففها بزمن قليل. فانّنا كنَّا نصرف في اليوم ١١٥ مليوناً الى ١٢٠ مليوناً من الروبل. وكنَّا في الغالب لا نجد احداً يصرف لنا دراهمنا لخوفهم من ان يرى السوفيات في يدهم نقوداً

فيغصبونهم أياها شاءوا ام أبوا

وفي اليوم الثالث من حلولنا في سيبستوبول حضر المركب الروسي الذي كنّا في انتظاره وقد دُعي اسمهُ «ايليتش» وهو اسم والد لينين رئيس السوڤيات الاكبر. فطلبنا لنا عشرة امكنة في الدرجة الاولى وذلك مجاناً كما صار الاتفاق مع الكرسي الرسولي ورئيس الجمهوريّة في موسكو. لكنّ الركّاب كانوا قد سبقونا واحتلّوا تلك الامكنة وبالكدّ والجهد وجدنا امكنة في الدرجة الثانية

ولمّا اردنا نقل امتعتنا المودعة في مستودع الجمرك طلب العمال ان يزوروها على خلاف ما كان الاتفاق مع الڤاتيكان فقدّمنا لهم قائمة كل طرودنا واثقالنا التي صدّق عليها في رومية ممثّل دولة روسيّة فلم يقنعوا ولم يرضوا الّا بفتحها ليسلبوا منها ما شاؤوا . فتهدّدناهم بالالتجاء الى المراجع العليا واثبتنا لهم انّ معاملتهم هذه اهانةٌ للحبر الاعظم الذي اراد ان يمدّ الى بؤساء روسيّة يد المساعدة ولا بُدّ انّنا نبأنهُ عدمَ وفائهم بمواعيد دولتهم . فلمّا رأونا مصرّين على مقاومتهم راجعوا بالتليفون رؤساءهم فأتاهم الجواب باطلاق سبيلنا

فركبنا السفينة عصر السبت ١٨ آب واذا هي قذرة خالية ليلًا من النور أمّا غُرفنا فلم نجد فيها لا شراشف ولا لحافاً للنوم ولا ميضأة للغسل حتى سمحوا لنا ان نسكن في محلّ المائدة فأوينا اليهِ وتدثّرنا بثيابنا ليلاً . فاقلعت الباخرة ايليتش التي كان محمولها ٤٠٠٠ طن وسارت سيرًا ليّناً فادركنا بعد اربع ساعات مدينة «يَلتا» وهي مدينة صغيرة حسنة الموقع جميلة المباني المشيّدة في معاطف جبل يشرف على البحر يصطاف فيها اغنياء الروس وكان فيها للقيصر دارٌ ملوكيّة يسكنها في فصل القيظ مع حاشيتهِ وقد اصبحت البلدة اليوم خاويةً خالية

٣ ثاودوسية

وبعد ثلث ساعاتٍ اقلعنا الى ثاودوسية فبلغناها في منتصف الليل . واذا هناك في انتظارنا احد الآباء اليسوعيين الاميركيّين الاب ولش (P. Walsh) الذي سبقنا في رفقة اللجنة الاميركيّة لمساعدة المنكوبين فكان اعدّ لنا سيّارتين من سيّارات لجنتهِ فاقلّتانا وكل اثقالنا الى نزلٍ في المدينة حيث أعدّ لنا عشر غرف لنسكنها مدّة

اقامتنا في ثاودوسية الى ان يتيسّر لنا الرحيل الى مكان شغلنا

فوجدنا تلك الغرف اعشاشاً للبقّ كانت تمتصّ دماءنا فلا يستطاع النوم فيها وكان في ذاك المنزل قوم من الموسيقيين يقضون ساعات من الليل في نَقْر كمنجاتهم فيزيدون على عَنائنا

ومما يُضحك لهُ انَّ مسماراً كان خرقَ ثوبي فاردتُ اصلاحهُ فقصدت خادمة المنزل وسلَّمتها الثوب لترفأه فطلبت في السوق خيطاً من لونهِ فلم تجد الّا شعر رأسها فخاطت بهِ ثوبي بكل حذق فأعطيتها ثلثة ملايين روبل. ثمَّ اتخذناها صانعةً لغسل ثيابنا واصلاح امتعتنا ولما ودَّعناها كانت تذرف الدموع لفراقنا

تجوَّلنا في ثاودوسية وحصلنا على بعض المعلومات عن تاريخها فاذا هي مدينة قديمة خصبة جرت فيها حوادث مجيدة. كان فيها للجنويين اوَّلاً ثم للبنادقة مخازن تجاريَّة رائجة ولا يزال هناك برجٌ يدعى باسمهم. ومرفأ ثاودوسية من الطف واجمل المرافئ واسع الارجاء كانت تتزاحم فيهِ المراكب التجاريَّة التي كانت تنقل منهُ ملايين من اطنان القمح الكافة انحاء المعمور. امَّا الآن فقد اصبح فارغاً لا تُرى فيهِ الّا مراكب اللجنة الاميركيَّة القادمة لإعانة الملهوفين واقاتة الجائعين

وهذه المدينة قد اصبح قسمُها الشمالي خراباً وهناك كانت احياء التتر. وكانت التلال المجاورة للمدينة تظلّلها غابات الشجر فقُطعت كلّ اشجارها في الشتاء للاصطلاء فاضحت قفراً جرداء. امَّا الحقول فمهملة والكروم الممتدَّة الى مسافات بعيدة قد غلب عليها الشوك والعوسج وليس من يكترث لفلاحتها. فلا عجب ان ترزح البلاد تحت اعباء المجاعة

وكان الفقراء يتسارعون الى منزلنا كما في اودسّا طالبين كسرةً من الخبز او قليلاً من الطعام. وربَّما اختلط بهم بعض ارباب الثروة سابقاً. وكانت بينهم ارملة احد قوَّاد الروس الذي قُتل في الحرب وفي يدها قصعةٌ تطلب قوتاً والناس يهزأون بها لاختلالٍ اصاب عقلها من كثرة اوجاعها. فضمنَّا لها طعامها. وكذا فعلنا بامرأة احد اساتذة جامعة روسيَّة اتت الى هنا هاربةً من المجاعة لتذهب الى الاستانة ففات اوان سفرها وليس من يهتمّ بامرها. وكان بين طالبي المساعدة رجلٌ من الطليان كان سابقاً قنصلاً لدولتهِ ولهُ املاك واسعة فاستلبها كلها السوفيات واخرجوهُ من بيتهِ فنهكت

الاحزان قواهُ واشرف على قطع الرجاء

في غربي المدينة رأس داخل في البحر يشير اليهِ الاهلون خلسةً ولا يلفظون اسمهُ الّا مهامسة خوفاً من الجواسيس فهناك رمى السوفيات بالرصاص نحو عشرة آلاف من الجيش الابيض اغلبهم من الضبّاط وافاضل دولتهم رحمهم الله

قضينا في ثاودوسية خمسة أيام ونحن نطلب الى اصحاب الامر ان يسهّلوا لنا السفر الى محلّ شغلنا فيحضروا لنا قطاراً نركبهُ الى حيث تعيَّن شغلنا من قبل دولتهم فلم نزل نالحّ عليهم حتى اجابوا الى دعوتنا . ولما تحفّزنا الى السفر وعرف الناس أننا اتينا لإسعافهم تعدّدت طلبات المحتاجين لكي نرحمهم في ضنكهم . وكان هناك احد الكرواتيين الكاثوليك الذي ساءت احواله بمصادرة البولشفيك فطلب ان يُنظم في دائرة اشغالنا . فأحلناهُ الى السوفيات الذين لهم وحدهم التصرُّف في تعيين عدينا (لهُ تتمّة)

بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

لمّا كانت الحرب الكونيَّة منتشبة وبيروت تحت رحمة الدولة التركية تعيَّن على كلّ ولايتها رجل ذو حزم وإقدام كخلَف لسامي بكر بك نعني بهِ عزمي بك . فضبط زمام الامر وجرى في حكمهِ بعدل وانصاف . ولولا تحكُّم جمال باشا عليهِ لعلَّهُ كان خفَّف من وطأتهِ ولطَّف نوعاً بعض الفظاظة في طباعهِ (١

١) بينا نحن نرقم هذه الاسطر قد علمنا بالاسف وفاة عزمي بك رحمهُ الله رحمة واسعة

ومما يذكر لهُ فيشكر انهُ قصد ان يرفع منار الولاية الموكولة الى همتهِ ولاسيما مركزها بيروت ، ليزيل عنها ما يشينها ، ويجلي محاسنها بما يزينها ، فلا تلبث ان تباهي حواضر المدن الراقية بابنيتها الفخمة وشوارعها الفسيحة وحدائقها الغنّاء. فتصبح كتاج على مفرق البلاد الشاميَّة وكغرَّةٍ على جبهتها. على انهُ لم يحقق من تلك الاماني الَّا القسم السلبيّ بما اخربهُ من الاحياء القذرة وبذلك مهّد سبيلًا للدولة الفرنسويَّة لتقيم مكانها المباني الجليلة وتشيّد المعاهد الجميلة على طراز الهندسة العصريَّة

وقد سبق لنا في مجلة المشرق (١٩ [١٩٢١] : ٣٢٩) ذكر امرهِ بتقويض ابنية الاسواق العتيقة التي كانت تعشّش فيها الجراثيم الوبيئة ووقوف العملة على آثار بناء قديم عهد الينا والى الاجزاني المرحوم مراد بك البارودي ان نقدّم لهُ فيها تقريرًا رسميًا مع وصف ما وجد من الكتابات والخزفيّات والنقوش فلبينا طلبهُ. ثمَّ عرض على كاتب هذه الاسطر ان يصنف تاريخًا مختصرًا لبيروت وآثارها القديمة وسمح لنا وقتئذٍ بمراجعة مكتبتنا الشرقيَّة التي كانت أُقفلت منذ اوَّل الحرب

فباشرنا بهذا العمل بطيب خاطر وان لم يكن بيننا وقتئذٍ احد من الاختصاصيين من اخوتنا الرهبان لنقتبس من معارفهم ونسترشدهم فنستند الى آرائهم. ثمَّ انجزنا العمل بعد أشهر وانتظرنا ريثما يطلبهُ الوالي منَّا وكانهُ نسي امرهُ لوفرة اشغالهِ ولاسيما بعد ان دعانا متصرّف جبل لبنان اسماعيل حقّي بك باغراء رجل شريف من اعزّ اصدقائنا سعادة حسين كاظم بك الى تأليف دليل للبنان وضعناهُ مع لجنةٍ من الادباء ونُشر في المطبعة الادبيَّة فجاء اكبر وأوفى كتاب عن لبنان وسائر احوالهِ

امَّا صحائفنا في تاريخ بيروت فبقيت متروية بين اوراقنا حتى ذكَّرنا بها احد الادباء وحثَّ رجلًا اثريًا من اهل الانتداب على ان يطالبنا بها ويدعونا الى نشرها في مجلّتنا لعلَّها تأتي بفائدةٍ لدارسي تاريخ الوطن. فها نحن مجيبون لطلبتهِ مستميحين عذرًا من قرَّائنا الادباء لما يعثرون عليهِ في هذا العمل من النقص والخلل

مقدمة

نظر عامّ في تواريخ بيروت

من العجب العجاب انّ حاضرة بيروت مع ما طرأ عليها على توالي الدهور من الطوارئ الهامّة وحدث فيها من الوقائع الخطيرة لم يُكتب حتى اليوم تاريخها البهيج. وغاية ما ورد عنها بعض اسطر قليلة لا تتجاوز اذا جُمعت الثلث او الاربع الصحائف تجدها متفرّقةً في بطون تواريخ قدماء الكتبة من يونان ورومان وسريان

ومثلهم العرب فانّ تآليفهم لا تحتوي عن بيروت الّا الفوائد النزرة التي لا تفي برغبة الباحثين. وقد سعى بينهم سدًّا لهذه الثلمة وتلافياً لهذا الخلل احد ادباء القرن التاسع للهجرة والخامس عشر للميلاد وهو من سُلالة امراء بني الغرب المشهورين بالبُحْتُرِيين يُدعى صالح بن يحيى صنّف كتاباً وسمهُ بتاريخ بيروت وقد وجدنا نسخةً فريدةً من تأليفهِ في مكتبة باريس العموميّة فاستحضرنا رسمها بالتصوير الشمسي ثمّ زيّنّا بها جيد مجلّتنا المشرق لمّا ظهرت لاوّل مرّة سنة ١٨٩٨ وتابعنا نشرها مدّة سنتين ثم طبعناها على حدة واضفنا اليها فهارس واسعة وعدّة معلومات وملحوظات (١

لكنّ هذا التاريخ في حقيقة الحال مع فوائده لم يذكر عن بيروت الّا ما لايشفي العليل ويروي الغليل. فانّ صاحبهُ بعد كلام اجمالي عن بيروت وقِدَمها وآثارها يتخطّى الى ذكر بعض التقاليد التي كان يتناقلها اهل زمانه ثمّ ينقل عن مؤرخي العرب ما كتبوهُ عن فتوحات بيروت المتوالية بعد الاسلام وخصوصاً في عهد الفرنج الصليبيين الى ان ينتهي الى تاريخ اجدادهِ من بني الغرب فيفيض في مآثرهم في بيروت وانحاء لبنان

وقد اجتهدنا وقتئذٍ في ان نثبت في ذيل الكتاب ما امكنّا جمعهُ عن بيروت من كتب التاريخ على قدر ما كانت تسنح لنا الفرصة ويسمح قصر الوقت وتراكم الاشغال

---

١) وقد اخذ الدكتور لويس ابي نادر ومخائيل مراد صاحبا مجلّة العاصمة المطبوعة في ريوجانيرو في البرازيل بطبع هذا الكتاب في اعداد مجلّتهما نقلاً عن المشرق وكان اولى بهما ان يشيرا الى طبعتهِ المنفردة

وما خلا هذا التاريخ توجد فصول مختلفة في دائرة المعارف البستانيَّة وفي كتب الفرنج من مرسلين او اثريين او سيَّاح وفي برنامجات سوريَّة وبيروت يُستفاد منها بعض المعلومات للازمنة الاخيرة

فكل هذه الشذرات والفوائد المتشتِّتة لو جُمعت ورُويت منظَّمةً في ابواب مختلفة تأتي بلا شك بالضالَّة المنشودة وتعريف اخصَّ ما جرى في بيروت من الاخبار وما اكتُشف فيها من الآثار. فبكل سرور وارتياح نعود اليوم الى هذا البحث اللذيذ ليتألف منهُ خلاصة تاريخ تلك المدينة التي اصبحت اليوم عاصمة لدولة لبنان الكبير فيزيد اعتبار اهلها لها اذا وقفوا على نسبها الاصيل وذكروا ماضيها الجليل

ونقسم هذه الابحاث الى قسمين نخصّ القسم الاوَّل منها باخبار بيروت ومآثرها من قدم الزمان الى ظهور الاسلام. والقسم الثاني بتاريخها منذ الفتح الاسلامي الى أيامنا مع ذكر ما عثروا عليه من الآثار في هذين الطورَين

القسم الاول

اخبار بيروت ومآثرها في القدم الى ظهور الاسلام

البحث الاول

في موقع بيروت

انَّ الموقع الذي اختارهُ الاقدمون لبناء مدينة بيروت لَمن انسب المواقع لحاضرة كان من شأنها ان تجمع خواصَّ حواضر البلاد فانَّها بريَّة بحريَّة سهليَّة جبليَّة في وسط سواحل فينيقية تتوارد اليها خيرات الاقطار المجاورة على سواء من جهة الاناضول وبلاد حمص وحماة وحلب. ومن الجنوب من نواحي مصر وفلسطين. ومن الشرق من دمشق واحياء العرب. ومن الغرب من قبرس وجزائر البحر

وقد أنعم الله على بيروت باعتدال الهواء فلا يلحق بأهلها أذى البرد القارس شتاء ولا لظى الحرّ اللافح صيفاً فيحميها لبنان عن السموم وتلطِّف الريح البحريَّة شدَّة حرارتها في الصيف هذا فضلاً عن قربها من الجبل اذ يستطيع اهلها في أيسر الزمان ان يتمتَّعوا بنسيمهِ العليل ويتهنَّأوا بهوائه النقيّ البليل

ويستدلّ على حسنات هذا الموقع من درجات طول بيروت وعرضها فانّ طولها بالنسبة الى سمت باريس شرقياً ثلاث وثلثون درجة وسبع دقائق وبعض الثواني وعرضها اي بُعدها عن خط الاستواء نحو الشمال ثلاث وثلثون درجة واربع وخمسون دقيقة فناهيك بذلك دليلاً محسوساً على مميّزات وضعها . ثمّ بقربها نهرها المسمّى ميغدونيوس (Mygdonius) الذي يخصب ريفها . وكانت مياهُهُ قديماً تجري الى انحائها بقنيّ وقناطر تُرى حتى اليوم آثارها فتزيد اهاليها طيبَ السُّكنى ورغد العيش

ولبيروت راس يدخل في البحر الى نحو تسعة كيلومترات فيجعلها كما قال بعض القدماء كملكةٍ ترتفق الى الجبال وتغسل قدميها في غمر البحر او بالحري كسلطانة تبسط على مملكة البحار سيطرتها المظفّرة . ومنذ عهدٍ لا يعلم قدرَهُ الّا الله تمدّها خوافق الرياح التي تهبّ من جانب مصر بكمّيات من الرمل الذي يسهل تحويلهُ الى تربةٍ مخصبة توليها مرافق وخيرات لا تُحصى

البحث الثاني

في جيولوجية بيروت

يرجح علماء الجيولوجية انّ رأس بيروت كان قبل التاريخ منقطعاً عن البرّ تحيط به مياه البحر على مداره . فلم تزل الرياح الجنوبية تدفع اليه كثباناً من الرمل حتى ألصقتها بالجبل واغنتها بتلك السهول التي تزهو فيها غابات الصنوبر وهي تُعدّ من اوفر موارد غناها

ويؤيد هذا الرأي ما تحقّقهُ علماء طبقات الارض وبيّنهُ في مجلّة المشرق (١ [١٩١٨] : ٣٩٦) احد اساتذة كلّيّة القديس يوسف الاب زُموفن حيث قال : « ان الوادي الذي يجري فيه نهر بيروت مع ما يجاورهُ من السهل كان مغموراً بمياه البحر قبل حلول الانسان فيه وكان هناك خَور كبير يجمع بين خليج مار جرجس جنوبيّ البلدة ومياه البحر التي يصبّ عندها وادي شحرور »

واتى بالبرهان على ذلك مستدلاً بالرواسب البحرية التي تُرى في تلك الجهات في عدة مواضع من سفح لبنان وبقرب سكة الشام الجديدة عند المحل المعروف بلوكندة

المطران حيث توجد قطعة كبيرة من تلك الرواسب تعلو عشرة امتار فوق سطح البحر ومثلها قُلَّة مار دمتري والربوة التي عليها بُنيت ثكنة البلدة المحوَّلة الى السراية الكبرى فان كلتيهما تتركَّب من الرواسب عينها وتربتُها كتلةٌ من الرمل ودقيق الحصى والاصداف البحريَّة والحجارة المصقولة باحتكاك مياه البحر كما هو معهود في السواحل

وليس هذا الارتفاع عمل الرياح البحرية فقط بل هو احدى الطوارئ الطبيعيَّة بفعل العوامل الباطنة التي ترفع ببطء القشرة الارضيَّة وأديمها في السواحل كما اثبتهُ الجيولوجيُّون عن عموم شواطئ البحار وتبيَّنوهُ ايضاً في شواطئ سوريَّة وفلسطين

(الم[illegible])

الارزة والسنبلة

بقلم الاديب فؤاد افرام البستاني متقدّم النادي الادبي العربي في كلّيتنا

الارزة

حرابٌ خضراء تنطح كبد السماء دقَّةً وارتفاعاً
تُلقي عليها شمس الأصيل حُلَل الأُرجوان بلا حساب
ويميل بها النسيم فتتماوج خيالاتها على اديم السماء

***

عروقٌ متشعّبة ، ملتفة ، مشتبكة ، تفتَّتت عليها قوَّات الدهور ولم تتزعزع .
اصول راسخة في ارض ما انبتت الّا العظيم .
اعضاء مفتولةٌ يخالها الناظر سواعد جبابرة الاقدمين محتبكة للدفاع عن ارض الميعاد . . .

***

هذا هو الارز ...

بين يديهِ وقفتُ باجلال ، فأطرقت لا أنبس بكلمة . وامامهُ بقيت متأملًا لا أجسر على رفع الصوت...

أهابَ بي منذرٌ أنِ المكان مقدَّس فخلعتُ نعليَّ كموسى امام العوسجة وقلت : ممجّدٌ من تتجلّى قوّتهُ بعظائم الطبيعة

افتكرت طويلًا فمرَّت في مخيّلتي الوف السنين الغابرة وسياق الاجيال المتتابعة، تسير مستقيمة القامة ، ثابتة الخطوة ، محدّدة النظر حتى اذا وصلت امام الارز حنت رأسها صاغرةً وواصلت السير بسكونٍ وسكوت

مرَّ سليمان وقد أُوتيَ الحكمة فاراد تشييد هيكل لإله الحكمة . لم يرَ الّا خشب الارز يجهزهُ مذبحاً للعزّة الالهيّة، ولم يجد الّا ريح الارز يتصاعد كالبخور ليلًا مع نهار الى عرش اله اسرائيل

عاهد حيرامَ — وما ادراك ما كان حيرام في مملكته — فقطع لهُ ما اراد من خشب الارز . وكان ذاك البناء الفخم ، وتشيَّد ذاك الهيكل العظيم احدى عجائب الدنيا السبع

اقبل الفينيقيون في جلبتهم يتبعون الهم ملكرت فقلبوا الارض ، وصنعوا الزجاج ،وألّفوا حروف الهجاء،وحاولوا الطوا. . ما وراء البحار فلم يروا الّا خشب الارز يحملهم في تلك البيداء المتماوجة

مرَّت الايَّام واذا بقوارب الفينيقيين تطوف المتوسط ، وتؤسس المستعمرات في اطراف البلاد واقاصي المسكونة اذ ذاك . وكانت قرطجنّة، عدوّة رومة ، رفعت عمدَها على سواعد ابناء الارز

... وسارت جذوع الارز المجوَّفة ، عائمة على الامواه، تتقاذفها الرياح، وتتلقّفها الثغور ، حتى وطئت ثلاث قارات العالم فنُودي في كل البلاد باسم الارز

***

سما الارز في طبقات الجو فافاق عنجهيّةَ المُفترين ، وحثَّ طمع الفاتحين ، فاخذوا يشنّون عليه الغارة تلو الغارة . ورماحُهم تتكسَّر،وسيوفهم تتثلَّم ، وجموعهم تتبدَّد،

ورؤوس الارز تزداد رفعةً واتساقاً

نفخ العُجب في صدور المقدونيين فاتى الاسكندر مدوِّخاً البلاد من يونان الى فارس، ضارباً الجزية على مختلف الشعوب. غير انه مرَّ امام الارز حاسر الرأس مفكراً

من هنا ايضاً مرَّ الرومان بعددهم الهائلة وجيوشهم الجرارة

ثم تبعتهم العرب في إثر معاوية الفاتح، معاوية العظيم، الذي ارجف الشرق، وجعل بوزنطية تنظر اليه بقلق وجزع. معاوية الجبار مرَّ حاني الرأس تحت اقدام الارز تاركاً المَرَدة في عُرُنهم الامينا

وكان سكونٌ طويل، حتى ظهرت بين القارتين الراية الحمراء، راية الدم والفتح والاستيلاء، فبرز السلطان سليم متشلاً بيمينه تاج الامبراطوريَّة البيزنطية وبيساره شعار الخلافة الاسلامية، فارتجفت سورية وتمايلت اغصان الارز كما لو مرَّ عليها نسيمٌ لطيف... ثمَّ استفاقت كالاوَّل هازئة بالجميع

***

رأيت سليمان على رأس العبرانيين، وحيرام امام الفينيقيين

رأيت الاسكندر في جيشه، والرومان في معدَّاتهم، يجرِّرون العزّ، ويطلبون المجد ولو رقي اسباب السماء

رأيت معاوية في عربه، والسلطان سليم في تُركه وعجمه، فشهدتُ المعارك الدموية والفظائع الهمجيَّة...

رأيت كل هذا وأفقتُ، واذا الارز لا يزال ارزاً، واذا البشريَّة لا تزال تمرّ صاغرة تحت اقدامه...

حينذاك مجَّدت هذا الثبات، وسكنت الى قول الشعراء وفي قولهم مفاتيح الحكمة فقلت:

بني امي اذا حضرت ساعتي والطبُّ أسلمني
حملوا في الارز مقبرتي وخذوا من ثلجهِ كفني

ولكن... ولكن قبل ان تُكفّننا بثلوجك الطاهرة ايها الارز! يا ارز الرب الخالد، يا ارزاً راسياً منذ الدهور والى الدهور، يا جسراً متصلاً بين اللانهايتين،

علّمنا الصبر على محن الدهر ، وأرشدنا الى الثبات في ديننا القويم ، وفي وطنيّتنا الصادقة . . .

يا ارزة لبنان—اجيبي دعاءنا . .

. . .

ومرّ النسيم محرّكاً الاغصان فسمعت صوتاً يتململ بين دقائق الارز : قد أجبت وأجيب

السنبلة

ثمّ أدرتُ الطرف تحت اقدام الارز فرأيتُ في ظلاله سنبلةً ، ضعيفة بذاتها قويةً بما ظلّلها ، سنبلةً عجيبة بين السنابل ، حملت البرّ في قلبها ، فحنت رأسها . فكانت صورةً للضعف في حمى القوّة ، وللصلاح في حراسة الجبروت ، رأت منفذاً على هذه الارض فنبتت . . .

هذه السنبلة الدقيقة ، المستحية ، هي رمز وطن رأى الصلاح والقيمة والفائدة في العمل الخفي المتواضع ، ورأى في الارز قوّة الله تسند ضعفه في ظلاله ، تقدّم غير طالب الفخار، بل باذلاً الجهدَ في العمل الجدّي ولو خفياً، في التفكير ولو صامتاً . . . نما حانياً رأسهُ في ظلال الارز فلم يجعل ثقتهُ في نفسهِ بل نبذ الفخار الفارغ ليعتصم بركن الههِ ويتشبّث بحبلهِ المتين راجياً ان يأتي بثمرٍ يربي على الثلثين والستين . تلك سنبلتنا الخصبة السامية باتضاعها على رفيقاتها :

فانظر اليها في السهو ... لِ تميس عجباً وافتخارْ
مالت بها ريح الصبا ... وعلا محيّاها البهارْ

***

ثقلتْ عليها ما تكنْ ... من الحبوب الناضجه
ولذا تراها للسكو ... ن رنَتْ وكانت هائجه

***

ها هي قد ثقلَتْ عليـها وطأة الحبِ الكثيرْ
تحني بعطفٍ رأسها ... شأنَ المفكّر في الامورْ

***

بينا السنابلُ قربَها افتقرت الى حبِّ الدقيقْ
فسمَتْ الى جوِّ السما تختال بالقدِّ الرشيقْ

***

وكذا ترون الناس دَوْ ماً في الحياة ولا غلو
رأس المفكّرِ ينحني والغرُّ يشمخُ للعلوّ

الآداب العربيّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي

لما انتهينا السنة ١٩١٠ من نشر كتابنا الذي وسمناهُ بالآداب العربية في القرن التاسع عشر كان قصدنا ان نشفعهُ بنظر عامّ عن احوال تلك الآداب وتطوُّرها في اوائل القرن العشرين فلم تسنح الفرصة بتحقيق نيّتنا وانّما اكتفينا بان نختمهُ بملحقين او فصلين موافقين لاحوال العشر الاوّل من ذلك القرن الجديد دعوناهما : الحماسة الدستوريّة ومنظومات الوقائع الدستوريّة في اربعين صفحة

لكنّنا لم نزل مذ ذاك الحين نجمع الموادّ لمواصلة العمل وتدوين اخبار قسم من آداب القرن العشرين اذا امدَّ الله بحياتنا . وها قد بلغنا بنعمتهِ تعالى الربع الاوّل من هذا القرن فرأينا انّ هذه الحقبة تستدعي تصنيف خلاصة ما جرى فيها من المشروعات والمساعي لرقي لغتنا الشريفة وما انتجتهُ قرائح الادباء لتعزيزها ورفع منارة آدابها . وها نحن نعرض عليهم هذه المجموعة فعساها تروق في اعينهم وتأتي لهم ببعض الفائدة

ولعلّ البعض منهم ينسبوننا الى التهوُّر والثقة الزائدة بقوانا لما يلزم عملاً مثل هذا من المطالعة الكثيرة ووفرة المعارف وقد اتّسعت في هذه السنين دائرة الآداب العربية اتّساعاً كاد يستحيل على كاتب حصرها وضمّ اطرافها

نعم انّنا نقرّ بهذه المشقّة ولم نزل نقدّم رجلًا ونؤخر اخرى حتى تردّد على فكرنا المثل السائر «ما لا يستطاع كلّهُ لا يُهمل قلّهُ» فان بناء المعارف كصرح شاهق غاية ما يُطلب من كلّ اديب ان لا يضنّ عليه بحجر صغير او كبير يزيد في بنيانهِ سموًّا

وممّا ينشّطنا في مباشرة هذا العمل النظر الى ما حرّرهُ البعض من ذوي النجابة والهمّة القعساء فقرّبوا الينا نوعاً القيام به. فاننا نجد في ما صنّفهُ في مصر الكاتب الهمام المرحوم جرجي زيدان في كتابهِ تاريخ الآداب العربيـة ونشرهُ في بيروت جناب الفيكونت فيليب طرّازي في تاريخ الصحافة العربية معلومات لم نجدها في وصف آداب القرن التاسع عشر. وكم نشرت المجلّات والجرائد في القطرين المصري والشامي من فصول حسنة يمكن الاقتباس من انوارها والاستقاء من مناهلها العذبة. فهي قد أحيت ذكر كثير من المعاصرين الافاضل لولاها لبقيت اسماؤهم خاملة مجهولة وحقّها ان يشاد بذكرها لتكون قدوة للناشئة وفخرًا للوطن

وقد قسمنا تاريخ هذه الآداب ثلثة اقسام. فالقسم الاوّل يشمل وصفها وتراجم اصحابها في الثماني السنين الاولى من القرن العشرين من اوّل السنة ١٩٠٠ الى اعلان الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨. ويتناول القسم العشر السنين التالية الى نهاية الحرب الكليّة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨. ونخص القسم الثالث بالآداب العربيّة في هذه السنين الاخيرة الى ١٩٢٥

القسم الاول

الآداب العربيّة من السنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٨

الباب الاول

نظر اجمالي في الآداب العربية في بدء القرن العشرين

قد اتّفق ذوو الفراسة وارباب الحكمة والنظر على القول بانّ لكل قرنٍ ميزة

تفرزهُ من سواه كما انَّ لكلّ دولة وسُلالة سيا. خاصَّة تتَّسمان بها وتفرقهما عن خلافهما

كان القرن العشرون جيل انتباه ويقاظة لاهل الشرق فانهم استفاقوا من سِنَتهم العميقة واستنشقوا رائحة الحريَّة باختلاطهم مع الشعوب لدى نفوذ الاجانب بينهم ومهاجرتهم الى انحاء المعمور فأثَّر ذلك في افكارهم واخذوا يسعون الى اماطة التمائم التي كانت الدولة العثمانيَّة عوَّذتهم بها وتَزْع اللفائف التي كانت قمّطت بها حياتهم الروحيَّة. وكان اذ ذاك السلطان عبد الحميد في عزّ مجدهِ يسوس رعاياهُ بقضيب من حديد لا يأنف من سفك دماء كلّ من يحاول النجاة من نيره الثقيل

ومن مميّزات هذا العصر اتّساع نطاق العقول بالوسائل الجديدة التي قرَّبت اليها رقيًّا وأنارت بصائرها وشحذت افكارها. واخصّها المدارس التي شاعت في نفس القرى فضلًا عن المدن. بينها الجامعات والمدارس العليا والوسطى والابتدائيَّة كان يتقاطر اليها الاولاد من كل طبقات الاهالي حتى الفقراء والوضعاء. ففتحت لكثيرين منهم سبلًا جديدة للارتزاق بصفة كَتَبة واطباء ومحامين ومهندسين وتجَّار اصوليين جاروا الغربيين في مضمار الحضارة والتمدُّن. وخرج بعضهم من الجامعات الاوربيَّة فأتقنوا علومها كسائر الغربيين

وكذلك عرف الشرقيُّون ما في الاتّحاد من القوَّة فأخذوا على مثال الغربيّين يؤلفون الجماعات الادبيَّة لتعزيز اللغة العربيَّة ونشر آثارها. لكنها لم تثبت لعدم اتّفاق اعضائها ولنفور الحكومة منها خوفاً على سياستها

وقد ساعد على ترقي الآداب العربيَّة في الشرق انتشار الصحافة وتوفر المطابع والمطبوعات فانَّ العدد العديد من المتخرّجين في المدارس تحزَّبوا للكتابة فانشأوا من الجرائد السيَّارة والمجلَّات عددًا كاد لا يفي بهِ احصاء سواءٌ كان في الوطن ام في المهجر وقد بيّن ذلك جناب الفيكونت دي طرّازي في كتابهِ الممتّع عن الصحافة فعدَّد منها العشرات مع كونهِ لم ينشر بعد ما استجدَّ منها في القرن العشرين. وابرزوا مع المجلَّات مئاتٍ من المطبوعات في كلّ علم وفنّ اصبحت المكاتب تضيق عن جمعها. وبين هذه المطبوعات عدد وافر من مخطوطات القدماء كانت ضائعة في زوايا المكاتب استخرجوها من مطاميرها فأتت مساعدةً للنهضة الادبيَّة

ولعلّ المستشرقين اصابوا قصبة السباق في هذه الحَلبة فانّهم ابرزوا من مكاتبهم تآليف نادرة تهافت على درسها طلبة الآثار القديمة . وقد تنافسوا في نشر هذه الكنوز الادبيّة في كلّ الدول لم يثبّطهم في العمل ما كانوا يجدونهُ من العناء والمشقات وكثرة النفقات . وكانت في الوقت عينهِ مجلّاتهم الاسيويّة لا تدع بحثاً مهمًّا في سائر فنون الشرق إلّا خاضت فيهِ وقد احتفل البعض من اصحابها بعرسهم الفضي والذهبي بل بلغ بعضها السنة المئة لانشائها كالجمعيّتين الاسيويّتين الفرنسويّة والانكليزيّة

وزادت ايضاً في بدء القرن العشرين المكاتب التي تمكّن الباحثون من مراجعة مخطوطاتها كمكاتب الاستانة والشهباء وبغداد . واتّسعت مكتبتنا الشرقيّة فخُصَّ بها معهد واسع لضيق مكانها السابق فبلغ عدد مطبوعاتها الشرقية ثلثين الفاً فضلاً عن ثلثة آلاف مخطوط من منتخب المصنّفات العربيّة الاسلاميّة والنصرانيّة

ولحقت المكاتبَ المتاحفُ التي اخذت في اوائل القرن العشرين تُلفت انظار الشرقيين فودُّوا لو تُستحضر لهم متاحف تُجمع فيها الآثار العربية خصوصاً والشرقيّة عموماً على مثال المتاحف الاوربيّة فعُرضت في بيروت في باحة السراية القديمة بعض الآثار المكتشفة في المدينة وكان لمتحفَي كلّيّتي اليسوعيّة والاميركانيّة شأن اعظم وقد ابتنى الاميركان بناية خاصّة بتلك الآثار احسنوا هندامها وتنظيمها

وكان الاجانب في مصر قد سبقوا الشام الى ذلك بمتحفي الاسكندريّة والقاهرة استفاد منهما الاثريّون بما نشروهُ في مقالاتهم الرائقة . ومثلهما متحف الاستانة الذي نُقل اليهِ كثيرٌ من عاديّات سوريّة وفلسطين منها الناؤوس المعروف بناؤوس الاسكندر قُبر فيهِ احد ملوك صيدون

وقد أدّى امتزاج الشرق بالغرب في اوائل القرن العشرين الى التطوُّر في اساليب الانشاء نثرًا ونظماً فاخذ البعض يُنشئون على منوال الخياليين (les romantiques) بما يدعونهُ النثر الشعري او الشعر النثري فيرصفونهُ كمقطّعات شعريّة وينسقونهُ دون ارتباط كبير في المعاني سواء ارادوا ان يتمثّلوا بالسُّوَر القرآنيّة او يقتدوا ببعض المُحدثين من كتبة الفرنج

وقد اكتسب الشعر من طريقتهم ان خرج من دائرتهِ السابقة الضيّقة واخذ اصحابهُ يتفنّنون في نظمهِ صورةً ومعنًى . فترى الدواوين الجديدة مشحونة بالقصائد

في كلّ الوقائع المستحدثة والحوادث التاريخيّة والاختراعات الجديدة وتصوّر كل عواطف الانسان وكلّ مظاهرات الكون. وربّما تحرّروا ايضاً فيها عن البحور الشعريّة فوضعوا طرائق مختلفة لنظم اشعارهم وابراز شواعرهم

وقد اكثروا من وضع الروايات الخيالية ونقلوا ما شاع منها في البلاد الى العربيّة فغلبت في اذهان الكتبة والقرّاء قوّة الاحساسات والشواعر التخيُّليّة على قوّة العقل ورزانة الفكر . على انّ ذوي الذوق السالم واصالة الرأي لم ينخدعوا بهذه القشور وثبتوا على الكتابة السلسة المنسجمة التي شاعت في عصور اللغة الذهبيّة ففضّلوا اللبّ على القشر والجوهر على السطحيّات

(لهُ تتمّة)

مطبوعات شرقيّة جديدة

Le Siège Apostolique (359-451) par Mgr Pierre Batiffol. 1 vol. in-12, pp. VII-624, Paris, Gabalda, Prix 15 fs

الكرسيّ الرسولي من السنة ٣٥٩ الى ٤٥١

هذا التأليف بقلم احد جهابذة الكتابة الفرنسويين في عصرنا المنسنيور باتيفول رئيس جامعة تولوز سابقاً. كان تولّى درس تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في قرونها الاولى وأنجز منهُ قبلاً الجزئين الاوّلين كان مدارهما على الكنيسة الاولى الى زمن قسطنطين ثم الى النهضة الاريوسيّة . وفي هذا الجزء الثالث يتابع بيان احوال الكنيسة الرومانيّة من عهد قسطنس الثاني نصير اريوس الى فوز البابويّة في المجمع الخلقيدوني بعد سقوط الاريوسيّة وحرم البدعتين النسطورية واليعقوبيّة. والكتاب محرّر بانشاء بليغ وعلم واسع وتدقيق عجيب لا يدَع للخصم سبيلاً للانتقاد ل.ش

Zwemer (Sam. M.) : The Law of Apostasy in Islam. 1 *vol.* 8°, *s.d., Marshall Brothers, Ltd, London, Prix* 6[sh] *net*

شريعة الاسلام في جاحديهِ

يبحث المستر زويمر رئيس البعثة البروتستانيَّة في مصر عن موقف الشرع الاسلامي بازاء من يترك الدين المحمَّدي . فيثبت تاريخيًّا ان عقاب جاحدي الاسلام هو الاعدام فيستنتج من ذلك سبب قلَّة ارتداد المسلمين الى النصرانيَّة وعدم نجاح المبشّرين بينهم . فهو يقرّ في ذيل الصفحة ١٦ من كتابهِ بفشل قومهِ لديهم . على انَّهُ يحصر كلامهُ على البعثات البروتستانيَّة وكأنهُ يعتبرها النصرانيَّة كلها . ثمَّ يبحث بعد ذلك عن الشرائع المتساهلة التي سُنَّت في بعض البلاد وما صدر عنها من المفاعيل المرغوبة . وهو يتساءل عمَّا اذا تؤثر هذه التحويرات الشرعيَّة في القلوب في المستقبل وسوف نعلم أيصبح المتنصّرون من المسلمين في امانٍ على نفوسهم من جهة اهل دينهم

M. Gaudefroy-Demombynes et Louis Mercier : MANUEL D'ARABE MAROCAIN, Grammaire et Dialogues. *Nouvelle éd. revue et augmentée par* **L. Mercier,** 1 *vol. in*-12, *Paris*, 1925, *Prix* 20 f[s]

دليل العربيَّة المرَّاكشيَّة

انَّ نفوذ فرنسة في بلاد مرَّاكش حدا بالمستشرقين الى تصنيف كتب خصوصيَّة لدرس اللغة الشائعة بين اهلها . وها هوذا دليل مساعد على ذلك بما يتضمَّنهُ من القواعد والمكالمات في الفرنسويَّة والعربية كان ألَّفهُ المستشرقان غودفروا دي مومبين احد اساتذة معهد اللغات الشرقيَّة الحيَّة في باريس والمسيو مرسيه القنصل الفرنساوي في مرَّاكش . فراج الكتاب بين العمَّال الفرنسويين حتى استدعت الحاجة المسيو مرسيه الى إعادة طبعهِ فحسَّنهُ وزاد فيهِ فاصبح دستورًا وافيًا لا يستغني عنهُ دارسو لغة تلك البلاد ولاسيما ان الالفاظ العربية مصوَّرة ايضًا بالحرف الفرنساوي ل . ش

Amiral Scheer: MÉMOIRES. 1 *vol.* 8°, *illustré*, 1924, *Paris*, *Payot*, *Prix* 20 f[s]

مذكرات الاميرال شير

قد ذكرنا سابقًا مطبوعات احدى الجماعات العلميَّة تحت عنوان « معلومات

ودروس مفيدة لتاريخ الحرب الكونيّة» . وهذا الكتاب الجديد من افضلها وضعهُ الاميرال شير رئيس الاسطول الالماني المختصّ بخوض البحار . فهو مشحون بالمعلومات المفيدة للحركات الحربيّة وتدبير الاساطيل في زمن الحرب . وقد بناهُ المؤلف على ما كان يرسلهُ كلّ يوم من الاخبار البريديّة للعمدة الالمانيّة العليا . وهذه الترجمة الفرنساويّة مصحوبة بملحوظات تزيد في قيمة الكتاب الذي تزينهُ الرسوم والتصاوير والخوارط بعدد عديد . وقد قسمهُ مؤلفهُ الى ثلثة اطوار الحرب : فالطور الاول يتناول الستين الاولين . والثاني يمتدّ من واقعة سكاغراك الى الحرب بالغوّاصات . والثالث يتّسع في وصف حرب الغوّاصات

F. J. Bonjean et Ahmad Deif : MANSOUR, Histoire d'un enfant d'Egypte. 1 *vol. in*-16, *Paris; F. Rieder et C*ie, 1924, *Prix* 7 *f*s 50

منصور الولد المصري

هذه رواية اخلاقيّة قصد بها مؤلّفاها المقابلة بين التمدُّن الاوربي والتمدُّن المصري الوطنيّ فصوّرا ولدًا ينشأ في عائلة مصريّة فيجري على آدابها ثمَّ تجتذبهُ في شبابهِ المدنيّة الاوربيّة فيأنس بها ويسير بموجبها حتى تزول السكرة وتعقبها الفكرة فيعود الى مدنيّتهِ الاولى مفضّلًا لها على سواها . ذلك لباب الكتاب وفي مقابلتهِ هذه بين الحضارة الاوربيّة والحضارة المصريّة خللٌ كبير من عدَّة وجوه اذ يجعل كنه التمدُّن الاوربّي في بعض الاعراض التي ليست بجوهرهِ وانَّما هي مظاهر تختلف في كلّ مكان وكلّ طبقة من الناس . والمقابلة لا تصحّ في الاعراض لكن في الجواهر ج . ل

J. M. Keynes : LA RÉFORME MONÉTAIRE, traduction de **Paul Franck**, *Paris, Editions du Sagittaire*, 1924, *in*-16, *Prix* 7 *f*s 50

اصلاح النقود

ألّف هذا الكتاب بالانكليزيّة كينس احد مشاهير الاقتصاديين . وقد احسن المسيو فرنك بترجمتهِ الى الافرنسيّة زيادةً لشيوعهِ وهو يبحث عن تطوُّر النقود وما اصابها بعد الحرب من التقلُّبات الغريبة فيدرس الكاتب اسبابها وما يطرأ عليها من العلل المؤثّرة في تغيير قيمتها سواء كان في مواطنها ام في المعاملات مع البلاد الاجنبيّة

او لتلاعب السياسة بها وهو يفتّش على علاج لهذه التقلُّبات فتوضع لها قوانين ثابتة تصونها من هذه الأَزمات الضارَّة ج.ل

Poizat(Alfred): Le Symbolisme, édition revue et augmentée, 1924, Paris, Bloud et Gay. Prix 10 f

الكتبة الرمزيُّون

قد ظهر في فرنسة منذ نحو ثلثين سنة فئة من الكتبة الذين عُرفوا بالرمزيين لِما توخَّوهُ في كتاباتهم ولا سيما في شعرهم من المجازات الرمزيَّة والخياليَّات ابعدُهم شهرةً الشعراء بودلار (Baudelaire) وملارْمي (Mallarmé) وڤرلان (Verlaine) ورينيه (H. de Régnier) مع بعض البلجكيين والايطاليين. فأحبَّ الكاتب پوازا ان يصف اشياعها ويدرس طريقتهم الكتابيَّة ويبيّن خواصّها وما يفرزها عن سواها من الاساليب الانشائيَّة الشائعة في القرن التاسع عشر وهو ممَّن يستحسنونها نوعاً مع انتقاده على بعض شوائبها. امَّا نحن فمع شكرنا لمؤلف هذا الكتاب عن فوائده العديدة لا نظنّ ان حياة هذه الطريقة الجديدة تثبت زمناً طويلًا لمغالاتها في الرمزيّات والمعمَّيات

Guilloux (Pierre) : Les plus belles pages d'Ernest Hello 1 *vol. in-16, Paris* 1924, *avec portrait, Librairie Perrin, Prix* 7 *f*

منتخبات من تآليف ارنست هلُّو

ارنست هلُّو (١٨٨٥ †) احد الكتبة الكاثوليك الذين اشتهروا بتآليفهم الدينيَّة والادبيَّة والاجتماعيَّة في اواسط القرن التاسع عشر. إلّا ان اعداء الدين سعوا الى الحطّ من صيته بانتقادهم الجائر. وها انَّ احد المنصفين اراد ان ينتصر لهُ وقد اختار من كتبهِ عدَّة مقاطيع نظمها ابواباً مختلفة تثبت للقرّاء فضل ذلك الرجل المظلوم وفي آخر الكتاب جدول واسع لتآليفهِ يدلُّ على تفنُّنهِ وسعة علومهِ ج.ل

L. Zoretti : Leçons de Mathématiques Générales, 2e *éd., revue et augmentée,* 1 *vol., pp.* XX-788 *avec* 235 *figures, Gauthier-Villars Paris,* 1925, *Prix* 60 *f*

دروس الرياضيَّات العموميَّة

المسيو زورتّي استاذ الرياضيَّات في مكتب «كانَ» العلميّ ورئيس المعهد

الاختصاصي في معاملة نورمندية ألّف كتاباً ضخماً في الدروس الرياضيّة العموميّة قدّرهُ العلماء قدره واثنوا عليهِ اطيب الثناء. وها هوذا قد جدَّد طبعهُ واضاف اليهِ عدَّة معلومات منها وصفهُ لطريقة تعليم الرياضيَّات بواسطة الالواح العدديَّة (abaques) ويصف ايضاً الطريقة التي اخترعها المسيو مَنيان (Manian) لهذه الغاية بواسطة الرسوم الوضعيَّة (intégration graphique) وهي طريقة بسيطة وسريعة الفائدة. وهذا الكتاب من اجلّ الكتب العلميَّة وهو واضح جدًّا يسهّل الدرس للطلبة ويساعدهم على استظهار العمليَّات الرياضيَّة

الاب شرل كوست

Harold E. Palmer: A Grammar of spoken English, on a strictly phonetic basis. 1 *vol.*, 8°, 1925, *Prix* 12 *sh*.6., *Cambridge. W. Heffer and Sons*

اصول التكلّم باللغة الانكليزيّة

وضع مؤلف هذا الكتاب تأليفهُ للاجانب الذين يقصدون درس الانكليزيّة او تعليمها . ولذلك قد جعل كتابهُ واضح المأخذ قريب المعنى وخصَّهُ باللغة الفصيحة دون اللهجات الخاصَّة وافرد لهُ باباً مفيدًا في لفظهِ صدَّر بهِ الكتاب تسهيلًا لطالبيه

ج. ل

G. Noël-Armfield: General phonetics for Missionaries and Students of Languages. 1 *vol.* 3ᵉ *éd.*, *Cambridge, W. Heffer and Sons*, 1924. *Prix* 5 *sh.net*

القواعد العموميَّة النطقيَّة في درس اللغات

انَّ كثيرين اذا درسوا اللغات وعرفوا قواعدها الصرفيَّة والنحويَّة يشمئزُّون من متابعة درسها اذ يجدون صعوبةً في لفظها والنطق بها. فها هوذا كتابٌ عمليٌّ يرشد طالبي اللغات الى ممارستها والنطق بها. والكتاب قد وُضع خصوصاً لمواطني المؤلف الانكليز لكنَّ ملحوظاتهِ الدقيقة تفيد دارسي ايّ لغةٍ كانت لأنَّهُ كتبهُ على طريقةٍ نظريَّة علميَّة اثبتها بعدَّة اشكال تصويريَّة ورسوم مدقَّقة تقرّب الى ادراكها والعمل بها. وقد بلغ الكتاب طبعتهُ الثالثة لرواجهِ واقبال الجمهور عليهِ

الاب دوبست اليسوعي

SYRIA UNDER MEHEMET ALI by Asad Jibrail Rustum

سوريّة في عهد محمّد عليّ

يعرف قرّاء مجلّة الكليّة ما باشر بنشرهِ فيها جناب الاستاذ اسد رستم من مخطوطة تاريخيّة كانت في خزانة كتب الجامعة الاميركانيّة ألّفها احد وجهاء الوطن نوفل نوفل الطرابلسي واودعها معلومات نادرة عمّا جرى في الشام في عهد محمّد علي وابنهِ ابراهيم باشا. وقد زيّنها متولي نشرها بتقدّمات وتذييلات شتى ضاعفت قدرها. وهاهوذا اختصر عملهُ في مقالة انكليزيّة نشرتها مجلّة اللغات والآداب الساميّة في اميركا (The American Journal of Semitic Languages and Literatures) فنثني على همّة الاستاذ ونتمنى ان يثابر على دروسه التاريخيّة لبلادنا. فانهُ اقدر من سواه في استنباط مكنوناتها ونشر دفائنها

الحقيقة المتسترة. بحث تاريخي فلسفي انتقادي،

بقلم الخوري يوسف العمشيتي

طُبع في مطبعة قوزما في بيروت سنة ١٩٢٤ (ص ١٢٨)

يسرُّنا أن نرى بين الاكليروس الشرقيّ رجالًا يتحفّزون معنا للدفاع عن الدين وردّ كيد اعدائهِ على نحرهم. وبين أبسلهم وأنشطهم حضرة الخوري يوسف العمشيتي الذي قدّس قلمهُ بتخصيصهِ للمسائل الدينيّة وبيان فضل الدين واهلهِ على الانسانيّة والعلوم والمشاريع الخيريّة والاعمال الاجتماعيّة مع تفنيد آراء الخصوم. تلك هي الحقيقة المتسترة التي اشار اليها في هذا الكتاب الجديد واماط عنها الحجاب فنشكر الشكر العميم لحضرتهِ ولاسيما عمّا افردهُ في مديح رهبانيّتنا جازاهُ الله كل خير وجعل كتابهُ نورًا لكل من يطلب الهدى بقلب سليم ل.ش

قواعد قياسيّة لحلّ المسائل الحسابيّة

بقلم القس مبارك الحاج البسكنتاوي الراهب الماروني اللبناني

طُبع في مطبعة جريدة العلَم - بيت شباب - لبنان سنة ١٩٢٤ (ص ٩٥)

قد تعدّدت الكتب العربية المدرسيّة في الحساب. ولعلّ هذا التأليف الجليل من

افضلها وجدناهُ واضح التركيب سهل المنال حسن التقسيم يتناول الاعمال الاساسيّة الاربعة مع كسورها ثم طرائق سهلة لتحويل النقود المصريّة والتركيّة والسوريّة ثم قواعد النسبة والفائدة والشركة ومبادئ الجبر وغير ذلك . وفي كل باب امثلة حسنة مع حلّ مسائلها . بل لا يخلو في آخرهِ من مسائل فكاهيّة يُسَرّ بها الاحداث . فنتمنى للكتاب رواجاً كبيرًا ل . ش

التقرير الثالث : اعمال المجمع العلمي العربي في سنة ١٩٢٤م =١٣٤٢— ١٣٤٣ هـ

هذا التقرير بقلم رئيس المجمع السيد محمّد كرد علي اختصر فيهِ اعمال المجمع الدمشقي في السنة الماضية وبيّن رقيّهُ المتواصل عاماً بعد عام بمنشوراتهِ ونشاط اعضائهِ واتّساع معاهدهِ الاثريّة ومكاتبهِ واعتبار العلماء لاشغالهِ

مُختصر كتاب الفَرْق بين الفِرَق

حرَّرهُ فيليب حتّي د. ف.

طُبع في مصر في مطبعة الهلال سنة ١٩٢٤ (ص ٢٠١)

انَّ في معرفة المِلَل والنِحَل التي شاعت في الاسلام فائدةً عظيمة لانها توقفنا على الحركة الفكريّة التي شغلت عقول حكماء المسلمين في مختلف الاجيال وعلى سعيهم في حلّ المشاكل الدينيّة التي كانوا يعثرون بها ليوفّقوا خصوصاً بينها وبين العلوم الفلسفيّة والعقليّة مع ما قاسوه في سبيل ابحاثهم . فكان اوّل ما طُبع منها كتاب الملل والنحل للشهرستانيّ ثمّ كتاب الفصل في المِلَل والاهواء والنِحَل لابن حزم ثم شفعهما السيد محمّد بدر بكتاب الفَرْق بين الفِرَق ولهُ السبق عليهما ألّفهُ عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٥ هـ (١٠٣٧م) . على انَّ دار الكتب الظاهريّة في دمشق كانت تشتمل على نسخة من مختصر هذا الكتاب جليلة الفائدة ترتقي الى اواسط القرن السابع للهجرة والثالث عشر للمسيح لاحد الادباء المسمَّى عبد الرزّاق بن رزق الله الرَّسْعَني يُستفاد منها اصلاحات وتحسينات شتى للاصل السابق طبعهُ فأحبّ صديقنا الاستاذ فيليب حتي ان ينشرهُ خدمةً للادباء عموماً وللباحثين في الفِرَق الاسلاميَّة خصوصاً وعلّق عليهِ حواشي عديدة ومقابلات بالكتب الثلثة السابق ذكرها كما يفعل

كبار المستشرقين في نشرهم الآثار القديمة وختمهُ بالفهارس الحسنة . فنثني على همَّة استاذ التاريخ في الجامعة الاميركيَّة ونحضُّ ادباء الشرق على احراز هذه الطرفة السنيَّة

كتاب علم الادب: مقالات لمشاهير العرب في الخطابة والشعر

جمعها الاب لويس شيخو اليسوعي . طبعة جديدة مصحَّحة من الجزء الثاني

طبع في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٢٤ (ص ٢٤٤)

هذه المقالات لا تحتاج الى وصف خاصّ وهي لافضل كتبة العرب الذين عرفوا ما للخطابة من للفعل في النفوس فوصفوها وصفاً حسناً في اصولها وتركيبها ومفاعيلها . وكذلك الشعر لهم فيهِ اوصاف تدلُّ على دقَّة نظرهم وحسن ذوقهم . وهذه الطبعة الجديدة قد اعدنا فيها النظر وراجعناها على اصولها الطبعيَّة والخطيَّة . ولم نرَ داعياً لضبطها كلّها بالشكل وانَّما اكتفينا بضبط ما فيهِ بعض الشبهة في المعنى

ديوان وليّ الدين يكن

جمعهُ اخوهُ الاديب يوسف حمدي يكن

طُبع بمطبعة المقتطف والمقطَّم في مصر ١٩٢٤ (ص ١٢٧)

طالما متَّعنا النظر بمنشورات فقيد الادب وليّ الدين يكن منها نثريَّة ومنها شعريَّة بل كان في كلّها شاعرًا يترجم لسانهُ عما يكنُّ قلبهُ من العواطف المختلفة فسواء كتب في المديح او في الوصف او في الرثاء او في المناداة بالحرّية ترى قلمهُ يصوّر كل احوالهِ تصويرًا محسوساً يتأثر لهُ القارئ فيشاركهُ في عواطفهِ من هزل وجدّ ودموع وابتسام . ويكفي تسريح النظر في قصائد هذا الديوان ليعرف القارئ انهُ بين الاوَّلين من شعراء العصر . فالشكر لجناب شقيقهِ الذي جمع هذه الشذور الذهبيَّة وقرَّبها من محبّي الآداب العصريَّة ل . ش

الحماسيَّات في النَّهضة العربيَّة

الجزء الاول . نظم محمَّد كامل شعيب العاملي

طُبع في مطبعة العرفان : صيداء ١٣٤٣ (ص٧٩)

هذا ديوان آخر لاحد نوابغ الشعراء الوطنيّين الذي يصوغ نظمهُ صوغاً سهلًا منسجماً

ويودعهُ ما يشعر بهِ قلبهُ من الشوق الى الحرّية والنفور من الاستعباد على صورة حماسيَة واحياناً ثوريّة . وهذا ما نأخذهُ على الشاعر الذي لا يرعى الانصاف في ذمّهِ للدولة المنتدبة ولا يكاد يرى لها حسنةً مع كل ما افاضتهُ على سوريّة من سوابغ النعم فان وُجد لها بعض السيّئات فان حسناتها العديدة تشفع بها وتكمّ افواه العاذلين . أفيجهل الشاعر كل ذلك ؟ ل . ش

شذرات

﴿فقيد عزيز﴾ فقدت رهبانيّتنا احد ابنائها العزيزين الذي كانت تعوّل عليهِ لتعليم الدروس الكتابيّة واللغات الشرقية في نيويرك . نريد بهِ المرحوم الاب يوسف غريّب من الاسرة الدامورية الشهيرة . فشاركناها بالاسى والتلهُّف . كان المرحوم هاجر مع قرائبهِ الى اميركا صغيراً وتخرّج في مدارسنا هناك ثمَّ طلب الانضمام الى ابناء القديس اغناطيوس واستعدَّ الاستعداد التامّ لخدمة النفوس ولاسيما نفوس مواطنيهِ المهاجرين ورأى رؤساؤه وهو شرقيُّ المولد ان يخصّوهُ بشرح الاسفار المقدَّسة وتعليم اللغات الشرقيَّة فارسلوهُ اوَّلًا الى رومية حيث قضى سنةً في درس العبرانيّة والسريانيَّة والعربيَّة مع التعمُّق في العلوم الكتابيَّة ثمَّ أتانا الى بيروت على الرجاء انهُ يقضي بيننا سنتين . الَّا انَّ رؤساءهُ في اميركة استطالوا هذه المدة فاستدعوهُ لينجز ما بقي عليهِ من الفرائض الرهبانيَّة قبل تخصيصهِ بالتعليم فوجدهُ الله ثمرةً ناضجة لملكوتهِ قطفها لجنانهِ السماويَّة وحرَمنا من اجتنائها والتمتّع بطيب جناها

﴿ الباقة او الطاقة ﴾ كان صديقنا ورئيس مجمعنا العربيّ في دمشق السيد كرد علي في جملة انتقاداتهِ على كتابنا الآداب العربيَّة في القرن التاسع اخذ علينا استعمالنا كلمة «باقة» بدلًا من « طاقة » . فلم نشأ ونشتهِ ان ندافع عن فصاحة لفظة «الباقة» لارتياحنا الى كل انتقاد حسن مع اننا كنّا نستطيع ان نذكر جنابهُ بما ورد في صحاح الجوهري وفي لسان العرب وفي تاج العروس اذ قالوا : «والباقة الحزمة من البقل» .

فسكتنا واذا صديقٌ آخر دمشقي نزيل الاسكندرية جناب الفاضل حبيب افندي الزيات احبَّ ان يثبت صحَّة استعمالنا للفظة الباقة بمعنى طاقة الزهور فنقل لنا عدَّة شواهد من كتاب يتيمة الدهر للثعالبيّ نثبتها هنا شاكرين لمكاتبنا الاديب. فمن ذلك ما ورد الثعالبيّ نفسهِ في عناوين المقاطيع الشعريَّة التي ذكرها. مثالهُ ما قالهُ قبل بيتين لرجاء بن الوليد قال (٤: ٦٣): ومن مُلَح رجاء قولهُ «في باقة ريحان». ومثلهُ قولهُ قبل ابيات لابي بكر الخوارزميّ (٤: ١٥٣): «ولهُ (اي الخوارزميّ) في باقة ريحان». ثمَّ ذكر جنابهُ ورود اللفظة في شعراء اليتيمة من ذلك قول ابن العبَّاس احمد بن ابرهيم الضبيّ في الثريَّا (٣: ١٢٣):

خلتُ الثريَّا اذ بدَتْ طالعةً في الحندسِ
سنبلةً من لؤلؤ او «باقةً» من نرجسِ

وروى جنابهُ عن كتاب ارشاد الاريب لياقوت الرومي (٥: ٢٤١) قول الشاعر علي بن عبدالله الناشيّ:

وليلٍ توارى النجمُ من طول مكثهِ كما ازورَّ محبوبٌ لخوف رقيبهِ
كأنَّ الثريَّا فيهِ «باقةُ» نرجسٍ يحيّ بها ذو صبوةٍ لحبيبهِ

فنشكر لجنابهِ هذه الملحوظات. ونلحقها بإفادة أُخرى على ما ورد في العدد السابق من المشرق في ما نشرهُ الاديب توفيق افندي اسكاريوس عن الغافقيّ قال:

﴿منتخب الغافقيّ ونصّ تعليقين باثرهِ في الفرق الاسلاميَّة﴾

«كتب توفيق افندي اسكاريوس بدار الكتب المصريَّة مقالةً في المشرق الاخير (٢٢ [١٩٢٤]: ٩٧٨–٩٨٣) وصف فيها نسخةً خطيَّة من كتاب الادوية المفردة لابي جعفر الغافقيّ اختصار ابي الفرج ابن العبريّ وجد في آخرها تعليقَين في الفِرق الاسلاميَّة توهَّم جدَّتها وخفاءهما قبل اليوم فعرضها على مجلَّة المشرق دون ان ينصَّ على نسبتها الى احدٍ من الغافقيّ او ابن العبريّ فنُشرا بالحرف. وانا استميح حضرتهُ عذرًا في تنبيهِ الى ان التعليقَين المذكورين معروفان منذ القدم لابن العبريّ وكلاهما قد نُشر في كتابهِ مختصر الدول الذي طبعهُ اوَّلًا في اوكسفرد سنة ١٦٦٣ العلَّامة ادورد بوكوك (ص ١٦٦–١٧٢ و ١٣٠–١٣١) ثمَّ جدَّد طبعهُ حضرة الاب

انطون صالحاني اليسوعي سنة ١٨٩٠ في المطبعة الكاثوليكيَّة ورد فيها التعليق الاوَّل في الصفحة ١٦٤—١٦٨ وقد عارضتُ المتنين فوجدتُ متن مختصر الدول اصحّ في الغالب واتمّ والفرق بينهما قليل ولا ميزة في مخطوط الغافقي الّا في مواضع ثلثة الاكثر اهميَّة لها ولا بأس في تحريرها وهي :

١ً قول مختصر الدول (ص ١٦٧) : «واما مذاهب الفروعيين المختلفين في الاحكام الشرعيَّة فالمشهورة منها اربعة» . والصحيح طبقاً لمتن الغافقي «فالمشهور منها اربعة» .

٢ً وقول مختصر الدول (ص ١٦٧) : «ومالك والشافعي وابن حنبل لا يرجعون الى القياس الجليّ ولا الخفيّ ما وجدوا خبرًا او امرًا» . والمختار كما في مختصر الغافقي : «ما وجدوا خبرًا او اثرًا»

٣ً وقول ماني في مختصر الدول (ص ١٣٠) : «انّ للعالم الهين احدهما خير وهو معدن النور والآخر شرّ وهو معدن الظلمة وانهما تمازجا فانتصر الخير على الشرّ» والاصح كما جاء في ذيل الغافقي «وانهما تهارجا» . وهنالك ايضاً الفاظ اخرى يسيرة ربّما تترجّح فيها رواية مختصر الغافقي لا أرى حاجةً للتنبيه عليها لابقاء متن مختصر الدول على علّاتهِ دون وهم ولا حرَج

(المشرق) فبعد هذه النبذة الحسنة بقي هناك مشكل نسبةِ التعليقين أهما للغافقي نقلهما عنهُ ابن العبري الذي اختصر كتابهُ الادوية المفردة ام وضعهما ابن العبري عن معلوماتهِ الخاصَّة . فنعرض الامر على احد ارباب البحث لعلّهُ يثبتهما لاحد الكاتبَين

❖ تلامذة الجامعة الاميركانيَّة ❖ نشرت مجلّة الكليَّة جدول تلامذة الجامعة للسنة المدرسيَّة الجديدة فاذا عدد المتخرّجين فيها في كل فروعها ١١٢٠ اكثرهم المسلمون ٤١١ ثمَّ البروتستانت ٢٠٩ ثمَّ الروم الاورثذكس ١٨٦ ثمَّ اليهود ٩١ ثمَّ الارمن الغريغوريّون ٧٥ ثمَّ الدروز ٣٦ ثمَّ القبط الاورثذكس ٢٦ ثمَّ الروم الكاثوليك ١٩ ثمَّ الموارنة ١٦ ثمَّ البهائيّون ١٥ وكذلك الفرنج اللاتين ١٥ ثمَّ الكلدان الكاثوليك ١٢ ثمَّ القبط الكاثوليك ٥ ثمَّ ارمنيّان كاثوليك ويعقوبيّان

❖ مؤتمر الجغرافية الدولي في مصر ❖ عرض جلالة السلطان فؤاد الاوَّل على

الدول عزمهُ على عقد مؤتمر جغرافيّ عام في القاهرة بنسبة السنة الخمسين للجمعيَّة الجغرافيَّة المصريَّة وعرض نيَّته على جميع الدول . وقد لبَّى بعضها سريعاً دعوتهُ . والمرجَّح انهُ سيُعقد في نيسان من السنة الحاليَّة

﴿الاكليريكيُّون يجرمون﴾ يوزّع البروتستانت من اصحاب « كنيسة الله » وغيرهم في الشوارع اوراقاً تحت هذا العنوان «الاكليريكيُّون يجرمون» شحنوها طعناً في الاكليروس عموماً وخصوصاً في حقّ الكنيسة الكاثوليكية ورؤسائها واتباعها وتعاليمها لِما يرون من الحركة بين مشايعيهم للارتداد الى الكنيسة الرومانيَّة التي عرفوا فضلها على شيعهم المتناقضة المتنافرة التي لا تعرف الاتّحاد الَّا لمحاربة كنيسة المسيح المبنيَّة على الصخرة غير المتزعزعة القديس بطرس هامة الرسل وخلفائهِ الاحبار الرومانيين . فما كان احراهم ان يخرجوا الخشبة من عيونهم قبل ان يستعظموا القذى في عيون غيرهم

فليعلموا انَّ سهامهم طائشة لا فعل لها في القلوب اللهمَّ الَّا العميان الذين يغمضون عيونهم عمداً عن انوار الشمس الساطعة . ولا نرى موجباً لتفنيد مفترياتهم التي يعرف كذبها الصغار فضلاً عن ذوي الخبرة والعلماء .

أسئلة وأجوبة

س سأل احد الاساتذة في الثغر أوَرَد في العربيَّة مصادر على فِعَّال وفِعِّيلَى وتِفِعَّال؟
مصادر على فِعَّال وفِعِّيلَى وتِفِعَّال

ج ورد بعض الفاظ في العربيَّة على هذه الامثلة بصفة مصادر . ففِعَّال منها مثال في القرآن في سورة النبا مرَّتين (ع ٢٨ و٣٥) كقولهِ : وكذَّبوا باياتنا كِذَّاباً . وجاء ايضاً في كتب اللغة : كلَّمتُهُ كِلَّاماً . ومن مصادر فِعِّيلَى الدِلِّيلَى وهي كثرة العلم بالدلالة . والحِثِّيثَى كثرة الحثّ . امَّا تِفِعَّال فقال ابو العلاء المعرّي في رسالة الغفران (ص ١٠٨) «انَّ هذا المصدر مطَّرد في تفعَّل وان كان قليلاً في الشعر» وروى تِقِرَّاباً لابي زبيد الطائي حيث قال :

فثار الزاجرون فزاد منهم   تِنقرابًا وصادفهُ ضَبيس

وكذلك ذكر التِنِقرَاق في قول الشاعر

طَيفُ ابنةِ الحُرّ اذ كنّا نُواصلُها   ثم اجتَنَنتُ بها بعد التِنقِرّاقِ

س وسأل احد الكهنة: هل صورة سرّ القربان في القداس «هذا هو جسدي . هذا هو دمي» تُحسب صورةً انشائيةً ام خبريّةً. فان سياق كلام الكاهن يدلُّ على انها خبريّة فكيف تتمّ الاستحالة بهذه الصورة ؟

صورة سر القربان في القداس

ج انَّ صورة سرّ القربان «هذا هو جسدي . هذا هو دمي» إخباريّة وإنشائيّة معاً . لان السيد المسيح الذي لفظ بهذه الصورة هو نفسهُ قال لتلاميذهِ « اصنعوا هذا لذكري » فبيّن بذلك انهُ جعل ذلك التعبير انشائيًا وان كان الكاهن يقولهُ في سياق كلام خبريّ . وهكذا فهمَتهُ الكنيسة والآباء واللاهوتيُّون في كلّ الاجيال منذ عهد الرسل

س وسأل من مصر نمُّوم افندي طاماز ماذا يُعرف عن الكتب الآتية واصحابها : ١ً رياض الازهار ونسيم الاسحار المعروف بمقامات القوّاس . ٢ً المقدّمة الكافية في اصول الجبر والمقابلة لابي الحسن علي السلمي . ٣ً الحُكم على قِرانات بطليموس في المثلّثات للخزاعي . ٤ً الرسالة الكافية المعروفة بالهارونيَّة لعيسى بن حكم الملقَّب المسيح ؟

تعريف بعض المخطوطات العربيّة

ج لا نعرف من هذه الكتب غير الاوَّل والرابع . فالاوَّل يحتوي تسع مقامات لشمس الدين قاسم بن محمَّد الدمشقي الحلبي المعروف بالقوّاس الذي كتب نحو السنة الف للهجرة (١٥٩١م) . أمَّا الرابع المنسوب الى عيسى بن الحكم الملقب بالمسيح فصاحبهُ احد مشاهير اطبَّاء النصارى في عهد هارون الرشيد ذُكرت ترجمتهُ في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (١: ١٢٠) لكنَّنا لا نجد ذكرًا لكتابهِ الرسالة الكافية المعروفة بالهارونيَّة . والهارونيَّة كتاب في التصريف لغيرهِ ذكرها الحاج خليفة في كشف الظنون (٦: ٤٧١)

س وسأل احد ادباء المسلمين في البلدة أيوجد نصّ صريح في الانجيل يمنع الإضرار والتسرّي اي تعدُّد الزوجات وأليس هذا أذًى بتقليل النسل وضررًا بالمجتمع البشريّ ؟

الإضرار في الانجيل وصلاحيَّة الزواج المفرد في المجتمع البشري

ج انَّ في الانجيل آيةً صريحة تمنع الطلاق والزواج بالمطلّقة حيث يقول الرب (متى ١٩: ٩): « انا اقول لكم من طلّق امرأتهُ إلّا لعلّة زنًى واخذ اخرى فقد زنى ومن تزوَّج مطلّقةً فقد زنى ». فلو كان الإضرار مسموحاً بهِ لَما امكن السيّد المسيح ان يقول: « مَن طلّق امرأتهُ واخذ أُخرى فقد زني » لو لم ينوِ بذلك مَنع الاضرار. فانهُ يعدّ زنى الزواج بامرأة بعد طلاق الزوجة الاولى فكم بالحري يعدُّ كزنى الزواج بامرأة ثانية مع بقاء الاولى. ونذلك يذكّر السيّد المسيح بشريعة الطبيعة الاولى لَما خلق الله الابوين الاوَّلين ويعيدها الى قوّتهما بقولهِ: أما قرأتم ان الذي خلق الانسان في البدء ذكرًا وانثى خلقهم وقال: لذلك يترك الرجل أباهُ وأُمهُ ويلزم امرأتهُ فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا... وما جمعهُ الله فلا يفرّقهُ انسان » (١

أمّا قول السائل بانَّ في منع المسيح لتعدُّد الازواج ضررًا بالمجتمع الانساني لتقليلهِ النسل فليس ذلك امرًا ثابتاً فكم نرى من العيال النصرانية التي يفوق عدد اولادها على المتسامحين بتعدُّد الزوجات وها نحن نذكر هنا ما كتبهُ احد مشاهير الاسلام في هذا المعنى نزيد بهِ العلّامة الجاحظ قال: في فصولهِ المختارة (في هامش طبعة الكامل المصريّة ٢: ١٧٥–١٧٦)

« والعجب ان كل جاثليق لا ينكح ولا يطلب الولد وكذلك كل مطران وكل اسقف وكذلك كل اصحاب الصوامع من اليعقوبيَّة والمقيمين في الديورات والبيوت من النسطوريَّة وكل راهب في الارض وراهبة مع كثرة الرهبان والرواهب ومع تشبُّه اكثر القسّيسين بهم في ذلك ومع ما فيهم من كثرة الغزاة وما يكون فيهم ممَّا يكون في الناس من المرأة العاقر والرجل العقيم. على انَّ من تزوَّج منهم امرأةً لم يقدر على الاستبدال بها ولا على ان يتزوَّج اخرى معها ولا على التسرّي عليها ومع هذا قد طبّقوا الارض وملأُوا الآفاق وغلبوا الامم بالعدد وكثرة الولد. وذلك ممّا زاد في مصائبنا وعظُمت بهِ محنتُنا. وممّا زاد فيهم وانمى عددهم انهم يأخذون من سائر الامم ولا يعطونهم لان كلّ دين جاء بعد دين اخذ منهُ الكثير واعطاهُ القليل » ل. ش

١) راجع مقالة حضرة الاب صالحاني في الطلاق. (الطبعة الثانية ص ٣٩. ثمن النسخة ثلثة قروش سوريّة)